القولُ بِتَفَاضُلِ البْيَانِ الْقُرْآنِيِ

بَيْنَ القَبُولِ والرفْضِ

(دِرَاسَةَ تحليليةَ في تراث أهل العلم)

بقلم الدكتور

سعيد إسماعيل الهلالي

الأستاذ المشارك بقسم البلاغة والنقد

بجامعتي الأزهر وأم القرى

١٤٣٢هـ= ٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ النساء /٨٢

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّهِ صاحبِ الحولِ والقوةِ والمددِ، يُعينُ من استعانَ به في حقٍّ، وينصر من استنصره من ضَعْفٍ، ويُنير طريق من استنار بنوره بصدق.

والصّلاة والسّلام على خير خلق الله أجمعين، ورحمته للعالمين، سيدنا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين...

وبعد..

فقد سبق لي – بفضل الله وحَوْله– أن وقفتُ مع مقالةٍ تردَّدت في بعض تراث أهل العلم أخذاً ورداً، وهذه المقالة تتعلق بأهم قضايا كتاب الله العزيز " القرآن الكريم " – وقضاياه كلُّها مهمة– وهي قضية الإعجاز، ومضمونها القول بتفاضُل البيان القرآني في فصاحته وبلاغته، و قد حاولتُ أن أبيّن خطورتها، واستغلال وتوظيف بعض المستشرقين لها، بالطّعن على القرآن الكريم والنَّيْل من إعجازه، كما حاولتُ أنْ أُظهر ضعفها من غير مساسٍ بعلمائنا الأجلاء من "أصحاب النيّات السّليمة، والإيمان الصّحيح، الذين جازتْ عليهم هذه الخُدْعَة؛

فرَوَوْها دون أنْ ينتبهوا إلى ما تحمل في طياتها من مغزى غير لائق بجلال القرآن الكريم جملة وتفصيلاً" . [1]

وكان وقوفي مع هذه المقالة بين اثنين من أهل العلم [2] **، اعتبرت أحدهما ممثِّلاً للقائلين بتفاضُل البيان القرآني، وهو: "ابن سنان الخفاجي" ، والآخر ممثِّلاً للقائلين باستواء البيان القرآني، وهو:" القاضي الباقلاني"، وقد علّلتُ لاختياري لهما بأنّ "ابن سنان" هو أول القائلين بذلك من البلاغيين، كما أنّه أول من حاول التّعليل لهذه الفكرة ، و"الباقلاني" بنى كتابه على فكرة مباينة البيان القرآني للبيان البشري، وذكر أنّ من أهم وجوه هذه المباينة استواء البيان القرآني وتفاوت البيان البشري.**

وفي هذا البحثِ أردتُ – بطلبٍ من أهل الفضل – أن أتتبّع رحلة هذه المقالة في أسفار أهل العلم أخذاً ورداً، وأنْ أرصد حُجَجَهم عليها، لمحاولة الوصول إلى رأيٍ فيها يليق بجلال كتاب الله و إعجازه.

والحقُّ أنّ ما أردتُه ليس سهلَ المنال؛ وذلك لأمرين:

---

(١)حول إعجاز القرآن للدكتور علي العماري هدية مجلة الأزهر عدد شوال ١٤١٩هـ ص ٢٤.

(٢) نُشِر هذا البحثُ بمجلة كلية اللغة العربية بجرجا في العدد السادس عشر (١٤٣١هـ= ٢٠١٠م) بعنوان:" القول بتفاوت البيان القرآني بين ابن سنان الخفاجي والقاضي الباقلاني. عرض ودراسة وتحرير"كما شاركتُ به في ندوةٍ للبلاغة بكلية اللغة العربية بمكة المكرمة جامعة أم القرى.

أوّلهما: أنّ هذه المقالة ليست واضحةً في تراث أهل العلم، وإنّما هي- كما ذكر شيخنا الدكتور محمد أبو موسى- تائهةٌ بين كلامهم لشموخ غيرها. [1]

وثانيهما: وعورة الطّريق الذي سوف أسلكه، فهو طريقٌ غامضٌ، كثيرةٌ أشواكُهُ، محفوفةٌ جوانبُه بدواعي الزّلل، مرهوبة مسالكه.أضف إلى ذلك ضعفي مع كثرة ذنوبي، وهذا الكتاب العظيم – بكل قضاياه- يتطلّب ممّن يتعامل معه أن يكون بعيداً عن المعاصي، وأن يكون ذا زادٍ وفيرٍ من الإيمان، و ذا بسطة في العلم.

لكنّي لرغبتي في إدراك شرف الذّود عن القرآن الكريم، سلكتُ هذه الطّريق التي لم تُعبّد، وعرضتُ نفسي للمخاطر، ولم أعبأ بذلك شريطة أنْ أعود من رحلتي- ولو- بصوابٍ واحدٍ يتعلق بكتاب الله العزيز، و قد رجوتُ الله أن يُنير طريقي بفيض نوره، وأن يرعاني بكامل رعايته.

على أنّ هذا البحث جاء في: مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وثلاثة مباحث، وخاتمةٍ، وثبتٍ بالمصادر والمراجع، على النَّحو التَّالي:

---

(1) راجع: الإعجاز البلاغي .دراسة تحليلية لتراث أهل العلم. مكتبة وهبة. ط. ثانية١٤١٨هـ= ١٩٩٧م ص٣٧٩.

- **المقدمة: بيّنتُ فيها أهمية الموضوع وخطورته، كما رسمتُ فيها منهج البحث وخطته.**

- **التّمهيد: تحدّثتُ فيه عن معنى كلمتي: التفاوُت و التّفاضُل في البيان القرآني، كما بيّنت وجوه التفاضُل فيه.**

- **المبحث الأوّل: جاء بعُنوان:" القائلون بتفاضُلِ البيان القرآني وحُجَجُهم"**

ورصدتُ فيه مَنْ قال بهذه المقالة – حسب علمي– على مستوى طوائف العلماء، كما رصدتُ حُجَجَهم.

- **المبحث الثّاني: جاء بعُنوان: "القائلون باستواء البيان القرآني وحُجَجُهم"**

وذكرتُ فيه العلماء الذين رفضوا القول بالتفاضُل رفضاً قاطعاً، وذهبوا إلى القول باستواء البيان القرآني كما ذكرتُ حُجَجَهم.

- **المبحث الثّالث: جاء بعنوان:" هل البيان القرآني مستوٍ أو مُتَفَاضِلٌ ؟ "**

وحاولتُ فيه دراسة حُجَج الفريقين بتجرّدٍ وموضوعية، وقمتُ بترجيح ما أراه صحيحاً، وبدحض ما أراه منكراً، لا يليق بجلال كتاب الله (تباركت أسماؤه).

والخاتمة أودعتُها أبرز النتائج التي أسفر عنها البحث.

وبعد ، فإني أستعين الله متبرّئاً إليه من كُلّ حولٍ وقوةٍ، راجياً أن تكون خطاي في الحديث عن هذه القضية واقعةً في مواقعها، على مَهَلٍ وأناةٍ وتوقفٍ، لأنّي أعلم أنّي أسير في طريقٍ غامضٍ، ولا عاصم إلا الله بحوله وقوته، ثم بتأييده وتوفيقه.

ولا أدّعي لنفسي الكمال ؛ لأنّ الكمال لله وحده، والعصمة لا تكون إلا لنبيّ، لكنّي أزعم أنّني أخلصتُ النيّة، وبذلتُ جهداً كبيراً؛ في سبيل الوصول إلى الحقيقة في هذه القضية التي تتصل بكتاب الله في عليائه، وأضع ذلك بين يدي القارئ الكريم ، فإنْ وجد خيراً فليحمد الله، وليدعُ لي بدعوةٍ صالحة، وليعلمْ أنّ ذلك من فضل الله وحوله ومدده، وإنْ وجد خلاف ذلك؛ فليلتمسْ لي العذر وليُحسنْ بي الظَّن ، وليدعُ لي بالهداية والغفران، وحسبي أني ارتدتُ طريقاً مفزعة.

وإنّني أتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى بهذا الجهد، وأرجو أن يتقبّله بقبول حسن، وأن يُنبته نباتاً حسناً، وأن يُثيبني على ما فيه من إجادةٍ وصوابٍ، وأن يعفو عنّي لما فيه من نقصٍ وخطأ وزلل.

وصلّى الله على سيدنا محمدٍ النبيّ الأميّ، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً آمين.

القنفذة – مكة المكرمة– في مساء الإثنين

الموافق ٢/١٢/١٤٣١هـ= ٨/ ١١/٢٠١٠م

وكَتَبَه

الدكتور سعيد إسماعيل الهلالي

التمهيد:

التّفاوُت والتّفاضُل

من ينظر في تراث أهل العلم الذين تعرّضوا لهذه القضية- إثباتاً أو نفياً-، يجد أنّ كثيراً منهم قد استخدم كلمة "التّفاوُت"، وبعضهم استخدم كلمة المفاضلة؛ ولذا رأيت من الواجب عليّ أن أوضّح المراد من الكلمتين، وأبين أيّهما أنسب للتعبير عما نحن فيه.

التّفاوُت

يطلق التّفاوت في لغة العرب على عدّة معانٍ، منها: الاختلاف والاضطراب، يقال : تَفَاوَتَ الشيئان: أي اختلفا في التّقدير ، ويقال تَفَاوَتَ الرّجلان: أي تباينا في الفضل والخُلُق واختلفا ، ويقال : تفوّت الشّيءُ ، أي: اختلف واضطّرب، ومنه قول الله جل وعلا:﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾[1]، والمعنى : ما ترى في خَلْقه(تعالى) السماء اختلافاً ولا اضطراباً ، وهذا قول قتادة .

---

(1) سورة الملك /٣.

ومنها العَيْب: وهو قول السُّدِّيِّ في تفسير الآية السّابقة، ويكون معناها عليه : ما ترى في خَلْقه (تعالى) السَّماء من عيبٍ ؛ بحيث يقول النّاظر إليها: لو كان كذا وكذا لكان أحسن. [1]

ومنها التّباعُد: تقول تَفَاوَت الشّيئان: أي تباعد ما بينهما؛ أيْ لم يُدرك هذا ذاك، ومنه قوله تعالى في التّنزيل العزيز: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[2]

أي لم يسبقوا ما أريد بهم، أو لا يفوتون ما فُزعوا منه[3]

و لا يجوز لنا أن نُطلق أياً من هذه المعاني على كتاب الله (جل وعلا) ؛ لأنها تُوحي بالنقص والعيب، وكتاب الله منزهٌ

([1]) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة، تحقيق: عبد الحميد هنداوي .ط دار الكتب العلمية بيروت. لبنان. ط. أولى ٢٠٠٠م .ج ٩ ص ٥٤٠، القاموس المحيط للفيروز آبادي ولسان العرب مادة فوت وتاج العروس للزبيدي ط دار الهداية.

([2]) سورة سبأ/ ٥١.

([3]) راجع :تهذيب اللغة للأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب(ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط أولى٢٠٠١م) ج ١٤ ص ٢٣٥. ومقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام محمد هارون (ط دار الجيل بيروت لبنان ط ثانية ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م)ج ٤ ص ٤٥٧ ومختار الصحاح لأبي بكر الرازي تحقيق محمود طاهر(مكتبة لبنان ناشرون ١٤١٥هـ= ١٩٩٥م)ج ١ ص ٢١٥ والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق محمد سيد كيلاني (ط دار المعرفة بيروت لبنان)ج ١ ص ٣٨٦.

عن ذلك؛ ومن ثمّ لم نجد أحداً من العلماء قد أراد في وصفه للقرآن بالتّفاوُتِ واحداً منها فضلاً عن جميعها ، إذاً فما الذي أرادُوه من التّفاوُت؟

إنّما الذي أرادوه من وصف بيان القرآن الكريم بالتّفاوُتِ، هو:

"تفاضل الآيات والسُّور فيما بينها".

والتَّفاضُل يعني التَّمازي في الفَضْل [1]، وهم يقصدون من ذلك أنّ بعض الآيات أو السّور قد يزيد في بلاغته على بعض.

أما الاختلاف والاضطراب، والتّناقض والتّباعد، فلم يقل به أحدٌ من أعداء القرآن العقلاء فضلاً عن أتباعه؛ وذلك لأنّهم لم يجدوا ما يدعو إلى القول به ، ولو أنّ كفار قريش – وهم أشدّ أعداء الإسلام وأعلمهم ببلاغته– وجدوا مغمزاً واحداً، ينفذون منه إلى الطّعن في القرآن والنَيْل من بلاغته؛ لما تركوا ذلك ، خصوصاً وأنّ القرآن ظلّ يدعوهم إلى مجاراته والنَّسْج على منواله– ولو بأقصر سورةٍ من مِثْله– مدةً طويلةً ، ويُقرّعهم على التّأخر والتلكُّؤ، وهذا التّحدي ما زال قائماً، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولعلّ أقرب تعريف إلى ما ذكرناه من قبل، هو قول

---

(1) اللسان:مادة فضل

الرّاغب الأصفهاني:" والتّفاوت الاختلاف في الأوصاف، كأنّه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف كلُّ واحدٍ منهما الآخر"[1]

على أنّ كلمة التّفاوت وإنْ حاولتُ أنْ أحصر معناها في الاختلاف في الوصف، إلا أنّني وجدت تحسُّساً منها عند بعض العلماء عندما تستعمل مع البيان القرآني – ولو للردّ عليها – لأنّها ربما تُوحي بمعان لا يليق وصف القرآن بها–وذلك لدلالتها على معان لا يليق وصف القرآن بها– ومن ثم فإنّي أفضّل التّعبير بالتّفاضُل عمّا نحن فيه؛ لأنّ كلمة "التّفاضل "لا تُوهم بشيءٍ، لا يليق وصف القرآن به، لكنّي حاولتُ أن أحدّد معنى لكلمة التّفاوت؛لأنّها ربما تقع في كلامي لشهرتها، و لأنّها وردت في كلام أهل العلم ، وقد وصف بعضهم البيان القرآني بها، و لا يجرؤ أحدٌ على أن يشكّ في ضمائرهم ولا ذممهم؛ لأنّهم من عدول هذه الأمة وهداتها ؛ وهم ورثة الأنبياء؛ ومن ثمّ حاولتُ أنْ أحصر معناها في الاختلاف في الوصف ، وهو – تقريباً– قريبٌ من معنى التّفاضل الذي استراحتْ له النَّفْس ، والذي جعلته عنواناً لهذا البحث، أما التّفاوت الذي يكون في الذّات ، وهو الذي بمعنى الاضطراب والتّناقض أو العيب، أو التّباعُد، فليس مقصوداً ؛ لأنّه لم يقل به أحدٌ– ممن يُعْتَد بقوله– على شيءٍ من القرآن الكريم،

([1]) المفردات في غريب القرآن ج ١ص ٣٨٦

وصدق الله إذ يقول: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1]

وبهذا نكون قد حدّدنا المراد من كلمة التّفاوُتِ، ونكون قد حصرناه في "تفاضُل الآيات والسُّور فيما بينها"، أوفي" اختلاف الآيات والسّور في الوصف".والمقصود من التفاضُل حينئذ أن تزيد بعض الآيات على بعض في الفصاحة والبلاغة.

وقلتُ "فيما بينها" بدون تحديدٍ للجهة التي يكون فيها التّفاضُلُ ؛ وذلك لأنّ العلماء قد ذكروا جهات أخرى للتّفاضُل، خلاف التّفاضُل البياني، فهناك التّفاضُل باعتبار الأجر والثواب، وهناك التّفاضُل باعتبار المُتحدّث فيه أو عنه، وهناك التّفاضُل باعتبار التّحدي، و التّفاضُل البياني هو الذي طال الأخذ فيه والرّد ؛ و لعل السّبب في ذلك أنّه يصطدم مع قضيةٍ مهمةٍ ، وهي قضية إعجاز القرآن الكريم، وسوف يكون هذا الضّرب من التّفاضُل قضية البحث، وإن كان هذا لا يمنع من أن نُشير إلى بقية وجوه التّفاضُل في القرآن حتى يعمّ النّفع.

---

(1) سورة الزمر/٢٣

وجوه التّفاضل في القرآن الكريم

الذي يُراجع تراث أهل العلم الذين تعرّضوا لقضية التّفاضل بين آيات القرآن وسوره، يجد أنّهم ذكروا عدة وجوهٍ للتّفاضل في القرآن الكريم أستطيع أن أجملها فيما يأتي:

١- تفاضل في التّواب والأجر.

٢- تفاضل باعتبار المُتحدّث عنه في الآيات.

٣- تفاضل في التّحدي بالإعجاز.

٤- تفاضل باعتبار بلاغته وإعجازه .

وقد ذكر جُلّ هذه الوجوه شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" في الجزء السّابع عشر (في التّفسير) ، وكتب عنها قرابة المائة صفحة ، و صال وجال، وجادل وناقش في هذه القضية، وأتى فيها بعلمٍ كثيرٍ فليراجعه من أراد المزيد[١] .كما جمعها أيضاً شيخنا العلامة محمود توفيق في كتابه "المدخل إلى علم بلاغة العربية"[٢].

ونحاول الوقوف مع هذه الوجوه بإيجاز فيما يأتي:

([١])مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم (دار عالم الكتب بالرياض) ج١٧ ص ٩ وما بعدها.

([٢]) ص ٩٨.

الوجه الأول: تفاضُل باعتبار الأجر والثواب

ذهب جمعٌ من أهل العلم إلى أنّ بعض كلام الله (سبحانه وتعالى) أفضل من بعض في باب الأجر والثّواب ، واستدلُّوا على ذلك بنصوص من القرآن الكريم والسّنّة المُطهّرة ، وممّا استدلُّوا به قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قدِيرٌ﴾[1] ، وهذا بيانٌ من الله لكون تلك الآية، قد يأتي بمثلها تارةً ، أو خيرٍ منها أخرى ،فدلّ ذلك على أنّ الآيات تتماثل تارة وتتفاضل أخرى. [2]

كما استدلُّوا بنصوص من السُّنة النَّبويّة؛ تُثبت تفضيل بعض كلام الله على بعضٍ، ومن ذلك أنّه (صلى الله عليه وسلم) أخبر عن (الفاتحة) أنّه لم ينزل في الكتب الثلاثة مثلها، وأخبر عن سورة (الإخلاص) أنّها تَعْدِل ثلث القرآن ، وعِدْلُها لثلثه يمنع مساواتها لمـــــقدارها في الحروف .وجَعَلَ (آية الكرسيّ) أعظمَ آيةٍ في القرآن كما ثبت ذلك في صحيح مسلم أنّ النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لأُبَيٍّ بن كَعْبٍ "يا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أيُّ آيَةٍ من كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟" قال: قلتُ:اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قال:"يا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أيُّ آيَةٍ من كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟"قال:قلتُ:"الله لَاإِلَهَ إلا هو الْحَيُّ الْقَيُّومُ

([1]) سورة البقرة /١٠٦.

([2]) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٧ص ١٠.

"قال:"فَضَرَبَ في صَدْرِي"وقال:"والله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أبَا الْمُنْذِر". [1] ورواه ابن أبي شيبة في مسنده بإسناد مسلم ، وزاد فيه :" والذي نفسي بيده ! إنّ لهذه الآية لساناً وشفتين تُقدّس الملك عند ساق العرش ". وروى أنّها سيدة آي القرآن .وقال في المُعَوِّذتين: " لم يُرَ مِثْلَهنّ قط"[2]

وقد ذكر ابن تيمية أنّ "القول بأنّ كلام الله أفضل من بعض هو المأثور عن السّلف ، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطّوائف الأربعة وغيرهم". [3]

على أنّ الذين قالوا بتفضيل بعض القرآن على بعض في باب الأجر والثواب ، قد اختلفوا فمنهم من ذهب إلى أنّ هذا التفضيل راجعٌ إلى القرآن في نفسه(في ألفاظه ومعانيه)، ومن هؤلاء ابن تيمية (رحمه الله) [4]

ومنهم من ذهب إلى أنّ القرآن في نفسه؛ ليس بعضه خيراً من بعض كالطبري؛ وذلك لأنّه كلام الله، ولا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض؛ فإنّه كلُّه من صفات الله، وصفات الله لا تتفاضل.

---

(1) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (ط دار إحياء التراث العربي بيروت) ج ١ص ٥٥٦.

(2) مجموع الفتاوى ج ١٧ص ١٠.

(3) المصدر نفسه ج ١٧ص ١٣.

(4) المصدر نفسه ج ١٧ص ٤٦

وأوّلوا قوله تعالى – وهو أصل استدلال الفريق السّابق– :" نأت بخيرٍ منها" والذي يقضي بأنّ المراد من الخير الفضل ، بأنّ المراد به ليس ذلك إنّما المراد :نأت بخيرٍ منها لكم ، وذلك يرجع إلى أحد أمرين في حقنا : إما سهولة في التّكليف ؛ فهو خيرٌ عاجلٌ ،أو أكثر ثواباً لكونه أثقل وأشق، ويكون نفعاً في الآجل والعاقبة..يقول الطبري:" وغير جائز أن يكون من القرآن شيءٌ خيراً من شيءٍ؛ لأنّ جميعه كلام الله ،ولا يجوز في صفات الله تعالى ذكره أن يُقال: بعضها أفضلُ من بعض، وبعضُها خيرٌ من بعض". (١)

و قالوا: إنّ التفضيل راجعٌ إلى عظم أجر قارئ ذلك وجزيل ثوابه، و أنّ معنى قول من قال: هذه الآية أو السّورة أعظم أو أفضل أنّ الثواب المتعلق بها أكثر.

ونخرج من هذا ،بأنّ الذين قالوا بتفضيل بعض القرآن على بعض، في باب الأجر والثواب، استدلّوا بنصوص من الكتاب والسّنة النبوية لا يستطيع أحدٌ أن ينكرها، ؛ولذا قال ابن تيمية عنه :" وهذا لا ينازع فيه الأشعري وابن الباقلاني، فإن الثّواب مخلوق من مخلوقات الله تعالى، فلا ينازع أحد في أنّ

---

(١) المصدرنفسه ج ١٧ص ٤٧ وراجع: تفسير الطبري(ط. دار الكتب العلمية بيروت .ط .رابعة ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م) ج ١ص ٥٢٦.

بعضه أفضل من بعض ، إنما النّزاع في نفس كلام الله..." [1]

فالتّفاضل في الأجر والثّواب لا نزاع فيه.

كما أنّ الذين قالوا بتفضيل بعض كلام الله على بعض في الأجر والثّواب ، ليس فيهم أحدٌ من القائلين بأنّ كلام الله مخلوق- كما يقول ذلك من يقوله من الجهمية والمعتزلة- بل كلّ هؤلاء يقولون :إنّ كلام الله غير مخلوق. [2]

أي أنّ هذا التّفضيل لا علاقة له بالاعتزال.

الوجه الثّاني: تفاضُل باعتبار المُتحدّث عنه أو فيه

من صور التّفاضل التي تعرّض لها علماؤنا الأجلاء ، هي تفاضل القرآن باعتبار المُتحدَّث عنه أو فيه، فذكروا أنّ القرآن يتفاضل باعتبار المُتَحدّث عنه، و ضربوا لذلك مَثلاً بسورتيْ "الإخلاص والمسد"؛فإذا كان قوله تعالى: " قُلْ هُوَ اللَّهُ أحَدٌ" وقوله " تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ" يشتركان في أنّهما كلام الله ، فإنّهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه المخبر عنه، فهذا كلام الله الذي يتكلّم به عن نفسه، وهذا كلام الله الذي يتكلّم به عن بعض خلقه، وهما في هذه الجهة متفاضلان بحسب تفاضل

([1])مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٧ص ٥٢.

([2]) المصدر نفسه ج ١٧ ص ٥٤ وما بعدها.

المعنى المقصود بالكلامين.

وممن يُشعر كلامه بهذا الوجه الإمامُ أبو حامدٍ الغزالي ؛ إذ يقول: "لعلك تقول: قد توجّه قصدك في هذه التنبيهات إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض، والكلّ كلام الله ، فكيف يفارق بعضها بعضاً ؟ وكيف يكون بعضها أشرف من بعض؟

فاعلم أنّ نور البصيرة إنْ كان لا يُرشدك إلى الفرْق بين آية الكرسيّ وآية المداينات، وبيْن سورة الإخلاص وسورة تبت ، وترتاع من اعتقاد الفرق نفسك الخوّارة المستغرقة في التقليد ؛ فقلّد صاحبَ الشَّرع صلوات الله عليه وسلامه ،فهو الذي أنْزل عليه القرآنُ، وقد دلّت الأخبارُ على شرْف بعض الآيات، وعلى تضعيف الأجر في بعض السّور المنزَّلة؛ فقد قال صلّى الله عليه وسلم:"فاتحة الكتاب أفضل القرآن" وقال صلّى الله عليه وسلم :" آية الكرسي سيّدة آي القرآن" وقال صلّى الله عليه وسلم :" يس قلب القرآن" و" قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " تَعْدِل ثُلُثَ القرآن". والأخبار الواردة في فضائل قوارع القرآن ، وتخصيص بعض الآيات والسّور بالفضل ، وكثرة الثواب في تلاوتها لا تُحصى. " [1]

([1]) جواهر القرآن لأبي حامد الغزالي تحقيق محمد رشيد رضا القباني ص ٦٣ . دار إحياء العلوم لبنان ط أولى ١٤٠٤هـ= ١٩٨٥م.

فالغزالي – رحمه الله– وإن كان يُنكر التّفاضُل البياني في القرآن الكريم[1] ، إلا أنّ كلامه هنا يُوحي بأنّه يجيز وجهين للتّفاضل في القرآن: الأول في باب الأجر والثّواب.والثّاني :باعتبار المتحدّث عنه.

وجاء الشّيخ العزّ بن عبد السلام وأجاز التّفاضل باعتبار المتحدّث عنه؛ إذ يقول:القرآن فيه فاضل و مفضول. فالفاضل كآية الكرسي وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر، فإنّ ذلك كلامُ الله في الله.

والمفضول:كـــ " تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ" و" قُلْ يَا أيُّهَا الْكَافِرُونَ"ونحو ذلك؛ فإنّ ذلك كلام الله في غير الله. فاكتسى الأول الشّرف من جهتين، واكتسى الثّاني الشّرف من جهة واحدة"[2] .

فكلامُ سُلْطانِ العلماء صريحٌ في أنّ كلام الله (سبحانه) يتفاضل باعتبار المُتَحدّث فيه، ولعل رأيه هنا قد أثّر في رأيه في التّفاضُل البياني؛ إذْ قد نَسَب إليه الإمامُ الزركشي قوله بالتّفاضُل فيه.[3]

---

(1) ذكر السيوطي ذلك في الإتقان ج٤ص١٠٠٩.

(2) فوائد مشكل القرآن للعز بن عبد السلام تحقيق الدكتور سيد رضوان علي " الندوي" دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة ط أولى ١٣٨٧هـــ= ١٩٦٧م.ص ٢٦٤.

(3) البرهان تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم(ط دار المعرفة بيروت ط ثانية) ج ٢ ص ١٢٢.

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله– فقد وسّع القضية، وذهب إلى أنّ الكلام سواء أكان خبراً أم إنشاءً ، يتفاضل من جهة المتكلم فيه أو عنه، فالخبر يتفاضل باعتبار المُخْبَر عنه، و الإنشاء يتفاضل في الأمر والنّهي؛ فبعض المأمورات أفضل من بعض، وبعض المنهيّات شرٌّ من بعضٍ، ثم ذكر أنّ من العلماء من منع هذا التّفاضل كابن عقيل، وقال : "إنّ التّفاضل ليس في نفس الإيجاب والتّحريم ، لكن في متعلق ذلك، وهو كثرة الثّواب والعقاب ،... ثم استطرد و حكى خلاف العلماء في جواز التفاضل في الأسماء والصّفات". (١)

الوجه الثّالث: تفاضل في التّحدي بالإعجاز

ومما يقع فيه التفاضل أيضاً التّحدّي بالإعجاز؛ وذلك لأنّه لم يكن على مستوى واحدٍ في القرآن كلّه، ولكنّه جاء بتدرّج من الأصعب إلى الأسهل ؛ حيث بدأه الحق(سبحانه وتعالى) بالقرآن الكريم كاملاً، ثم إلى عَشْر سورٍ، ثم إلى سورةٍ واحدةٍ مبالغةً في التّحدي وإظهاراً لعجزهم وإعجاز القرآن.

---

(١) مجموع الفتاوى ج١٧ص ٥٨-٥٩ ٦٩. بتصرف.

وليس التّحدّي بالقرآن كاملاً كالتّحدّي بعشر سورٍ، وكذلك ليس التّحدّي بعَشْر سورٍ كالتّحدّي بسورةٍ واحدةٍ.

فتكاليف التّحدّي بالقرآن أكثر من تكاليف التّحدّي بعَشْر سورٍ، وتكاليف التّحدّي بعَشْر سورٍ، أكثر من تكاليف التّحدّي بسورةٍ واحدةٍ. و من ثمّ "فليس الإعجاز القائم بالقرآن الكريم كلّه، كمثله مَنْزلةً في التّحدّي وإظهار العجز الإعجاز القائم في سورةٍ من سوره. وليس الإعجازُ والتّحدّي بسورة البقرة كمِثْله الإعجاز بالكوثر، فكلّما طالت السّورة، كانت تكاليف التّحديّ على العباد أكثر، وهذا لا يخفى".(١)

ولستُ أعني بذلك أنّ الإعجاز يتفاضَلُ في ذاته؛ لأنّ الإعجاز والتّحدي بسورة البقرة، كالإعجاز والتّحدي بسورة الكوثر؛ لأنّ الله قد تحدّاهم بمطلق سورة .

إنما أعني أنّه يتفاضل في كمه وتكاليفه، قُلْتُ هذا لأنّني أومن بأنّ الإعجاز في ذاته لا يتفاضل، شأنه شأن البلاغة، فهما على حدٍّ واحدٍ في القرآن كلّه.ولعل هذا هو ما عناه شيخنا الدكتور محمود توفيق ،حينما عقّب على نفيه أن يكون الإعجاز والتّحدي في سورتيْ البقرة و الكوثر واحداً بقوله: " وليس هذا من أنّ سورة البقرة في سياقها وغرضها أبلغ من سورة الكوثر في سياقها وغرضها. كلٌّ قد وفّى

---

(١) راجع: المدخل إلى علم بلاغة العربية للدكتور محمود توفيق ص ١١٠.

السّياق والمقصد كمال حقه".[1]

وثمة أمر آخر يتعلق بالإعجاز ويُصيبه التّفاوُت وهو إدراك الإعجاز، فبعضه قد يكون جلياً واضحاً وبعضه قد يَدِقُّ، ولا يكون ظاهراً ، قال الباقلاني – رحمه الله – :" ألا ترى أنّ الإعجاز في بعض السّور والآيات أظهرُ ، وفي بعضها أغمض و أدقّ ؟ !

فلا يفتقر البليغ في النّظر في حال بعضها، إلى تأمُّلٍ كثيرٍ، ولا بحثٍ شديدٍ، حتى يتبيّن له الإعجاز، ويفتقر في بعضها إلى نظرٍ دقيقٍ، وبحثٍ لطيفٍ، حتى يقع على الجليَّة، ويصل إلى المَطْلب.

ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجهُ في بعض السُّور، فيحتاج أن يفزع فيه إلى إجماع، أو توقيفٍ، أو ما علمهُ من عجز العرب قاطبةً عنه "[2]

إذاً، فالتّحدي بالإعجاز متفاوتٌ، ولا إشكال في ذلك، وإدراك الإعجاز متفاوتٌ ولا إشكال في ذلك، أما هو فليس متفاوتاً، وهذا ما تستريح له النَّفْس.

([1]) المرجع نفسه ص ١١٠.

([2]) إعجاز القرآن تحقيق السيد أحمد صقر (ط دار المعارف ط خامسة.) ص ٢٥٥.

الوجه الرّابع: تفاضل باعتبار بلاغته وإعجازه

وهذا الوجه هو الذي اشتدّ فيه عراك العلماء، بين مُؤيِّدٍ ومُعارضٍ، ولعلّ ذلك لارتباط البلاغة بالإعجاز؛ لأنّ "الإعجاز قد تشابك – بل توحّد– مع البلاغة تشابكاً يستحيل الفصل بينهما، وبهذا يصبح إعجاز القرآن وبلاغة القرآن تعبيراً عن شيءٍ واحدٍ" [1]

وقد وقف علماؤنا الأجلاء عند بلاغة القرآن وإعجازه؛ فذكر بعضهم أنّ بلاغة القرآن متفاضلة– أي يعلو بعضها بعضاً–، وأن القرآن فيه البليغ والأبلغ، ومن هؤلاء: ابن سنان الخفاجي(ت٤٦٦هـ)، وابن أبي الإصبع المصري(ت٦٥٤هـ) ، وسعد الدين التفتازاني(ت٧٩٢هـ) ، وعبد الحكيم السيالكوتي (ت١٠٦٧هـ) وابن يعقوب المغربي (ت١١١٠هـ) ، والشّيخ عبد المتعال الصّعيدي (ت١٣٨٣هـ) وغيرهم.

ومنهم من رفض ذلك رفضاً باتاً ، وذهب إلى استواء القرآن الكريم في فصاحته وبلاغته واعتبر ذلك وجهاً من وجوه إعجازه ، كالشّيخ أبي الحسن الأشعري(ت٣٢٤هـ)، وأبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) ، وأبي مسلم الأصفهاني (ت

---

(١) راجع: مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنّقد الحديث للدكتور إبراهيم الخولي (ط دار البصائر القاهرة ط أولى ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م) ص ١٨٠. ص ٤٥٧

٤٥٩هـ)، والفخر الرازي (ت٦٠٦هـ)، وحازم القرْطاجَنِّي (ت٦٨٤هـ)، والرّافعي (ت١٣٥٦هـ)، والشّيخ محمد عبد الله دراز (ت١٣٧٧هـ) وغيرهم.

وقد ذكر كلٌّ فريق حُجَجَه وأدلّته على صحة مسلكه، وسوف نعرض في هذا البحث حُجَج كلّ فريق وأدلته على ما ذهب وارتضى، ثم ندرسها دراسة وافية؛ لنصل إلى رأي يليق بجلال كلام الله جل وعلا، وتستريح له النّفسُ.

المبحث الأوّل:

القائِلُون بتَفَاضُلِ البيَانِ القرآنيّ وحُجَجُهم

توطئة:

من المعروف و المُسَلَّم به أنّ قضية البيان القرآني من أهم و أقدم القضايا التي شغلت العلماء – على مختلف طوائفهم– وذلك لأنّها وثيقة الصلة بالإعجاز القرآني ؛ إذْ اعتبر جمهورُ العلماء بلاغة القرآن أعمّ وأشهر وجوه الإعجاز، ومن ثم ألّفت الكتبُ الكثيرةُ، بل نشأ علمٌ من أوسع علوم العربية وأدقها لخدمة الإعجاز، و هو علم البلاغة.

وقد تناول البلاغة القرآنية بالبحث والدراسة طوائف عديدة ؛ منهم:علماء الإعجاز، وعلماء البلاغة، و المفسرون، وعلماء الأصول، وعلماء الكلام، وعلماء علوم القرآن وغيرهم؛ و سوف أقف مع أهم هذه الطوائف في هذا المبحث والذي يليه لأُجلِّيَ موقفهم من القول بتفاضُل بيان القرآن في فصاحته وبلاغته.

وأبدأ في هذا المبحث بالذين قالوا بتفاضُلِ البيان القرآني في فصاحته وبلاغته، وذلك لأنّهم أسبق من الرّافضين

لوقوع التّفاضُل؛ إذ لم يُؤْثر المنع إلا في القرن الثالث الهجري ، وفي تصوري أنّ القول بالمنع كان بناءً على موافقةٍ وإجازةٍ.

أولاً: علماء البلاغة

وبدأتُ بموقف علماء البلاغة لأنّهم أقربُ النّاس إلى هذه القضية، وكلامهم فيها- سواء بالقبول أو الرفض- له وزنه، أضف إلى ذلك أنّهم – على لسان ابن سنان الخفاجي- أوّل من حاول أن يُعلّل لها .

١- ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ)

هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجيّ الحلبي ، وهو أول من قال بالتّفاضُلِ من البلاغيين القدماء ،كما أنّه أوّل مَنْ حاول أن يستدلّ على القول بالتّفاضُلِ ، وقد وضّحت موقفه في هذه القضية هو والقاضي الباقلاني في بحثٍ مستقلٍ، ومن ثم أوجز رأيه هنا كما سأوجز رأي الباقلاني عند الوقوف معه بين الرّافضين للتّفاضُل.

رأيه ومنبعه:

يذهب "ابن سنان" إلى القول بتفاضُل البيان القرآني بصراحةٍ ووضوح، ولعلّ ذلك نابعٌ من قوله بالصّرفة في إعجاز القرآن؛ لأنّه يعتقد أنّ القرآن لم يعجز العرب بفصاحته-

فقد كان في مقدورهم أن يأتوا بمثله – وإنّما بصرف الله لهم عن معارضته .

ويرى "ابن سنان" أنّ هذا التّفاضُلَ لا يخفى على من عنده دراية بمقدمات علم البلاغة، وقد غلّظ القول وشدّد النّكير على من يُنكر ذلك ، واتّهمهم بأنّهم من أعاجم الفقهاء والمتكلمين ، وبأنّهم يجهلون صناعة البيان ولا يفهمون قوانينها،كما نَعَى عليهم حرصهم على أمور دنياهم، وعدم حرصهم على أمور دينهم؛ وذلك أنّ الواحد منهم إذا لم يعلم شيئاً في أمور الدّنيا سأل عنه؛ حتى لا يُغْبن، وإذا جهل شيئاً يتصل بأمور الدّين ككتاب الله، فلا يسأل عنه، ولا يرجع إلى أهل العلم، وكأنّه يلوح بأنّه عالمٌ بكتاب الله وما يتصل به، وكان ينبغي على هؤلاء الرّجوع إليه والرّكون إلى رأيه. [1]

على أنّ ابن سنان لا يذهب إلى أنّ القرآن الكريم متفاضلٌ في بلاغته فحسب، ولكنّه يذهب إلى أن القرآن متفاضلٌ في فصاحته أيضاً، وذلك حينما ذكر أنّ الكلام ضربان: متنافرٌ ومتلائمٌ، و أنّه قد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤماً من بعض، على حسب ما يقع التّأليف عليه، كما يكون من المتنافر ما بعضه أشدّ في التنافر وأكثر من بعض .

([1]) راجع :سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي تحقيق داود غطاشة الشّوابكة وما بعدها (ط دار الفكر ناشرون وموزعون عمان الأردن ط أولى ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م.) ص ٢١٤.

ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية. [1]

والفصاحة حينئذ لا تكون مرادفة للبلاغة، ولكنّها تكون وصفاً للألفاظ، على ما هو مقررٌ لها عند المتأخرين من البلاغيين. [2] **، وبهذا يُضاف بعدٌ آخر للقضية عند "ابن سنان الخفاجي" ، وهو أنّ كلمات القرآن متفاضلة هي الأخرى في الفصاحة، وتفاضلها كائن في أصل الفصاحة، وليس في درجاتها؛ لأنّه يرى بأنّ المتنافر يقع في القرآن شأنه شأن الكلام الفصيح، ومن المسلم به عند البلاغيين أنّ التّنافر عيبٌ من العيوب المُخِلّة بالفصاحة ، تنزّه القرآن الكريم عنه.**

أدلة ابن سنان على القول بالتّفاضُل:

واستدلّ "ابن سنان" على قوله هذا بعدة أدلّةٍ نُعدّدها فيما يأتي:

١ – إفراد العلماء لمواضع من القرآن يُعجِّبُون منها في البلاغة وحسن التأليف. وذكر "ابن سنان" خمس آيات، ثم عقّب عليها بقوله:" فلو كانوا يذهبون إلى تساويه – أي القرآن – في الفصاحة – أي البلاغة – لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دون غيرها معنى.

---

(١) المصدرنفسه ص ٩٣.

(٢) راجع: المطول ص ٢٨.

٢- قوله: ليت شعري، أيّ فرق بين أن يخلق الله وجهين أحدهما أحسن وأصبح من الآخر، وبين أن يُحدث كلامين، أحدهما أبلغ وأفصح من الآخر؟ وهل من يفرّق بينهما إلا مقترح؟

٣- قوله: ليس أحد ممّن ينكر أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض، يمتنع من القطع على أنّ القرآن في لغته أفصح من التّوراة في لغتها، والإنجيل في لغته، والزّبور في لغته؛ لأنّ تلك الكتب عنده لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة، وإن كان الجميع كلام الله تعالى.فما المانع من أن يكون بعض كلامه، الذي هو القرآن أفصح من بعض؟ حتى تكون آيةٌ منه أفصحَ من آيةٍ، والجميع كلام الله، كما جاز عنده أن يكون القرآنُ أفصحَ من الإنجيل وإنْ كان الجميعُ كلامَ الله. وهذا لا يخفى على مُحصِّلٍ.

٤- قوله: فإن قيل: الذي يمنع أن يكون بعضُ القرآن أفصحَ من بعضٍ، القول بأنَّ قدر كلّ سورة من قصار سور المفصل منه قد خرق العادة في الفصاحة بفصاحته، وكان معجزاً لعلوُّه في الفصاحة، وما كان خارقا للعادة في الفصاحة لا يكون غيره أفصح منه، قيل: الجواب عن هذا: أولًا- أنّ الصّحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأنّ فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصَّرف، وهذا هو المذهب الذي عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا

العلم، وقد سطّر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره، فالسّؤال على هذا المذهب ساقط.

٥- قوله: وعلى التّسليم بأنّ وجه الإعجاز هو الفصاحةلم يمنع أن يكون كلامٌ معجزٌ يَخْرق العادة بفصاحته، أفصحَ من كلامٍ معجزٍ يَخْرق العادة بفصاحته؛ فإنّ نبياً لو أظهر الله على يده معجزاً – وهو حمله ألف رَطْلٍ- لم يمنع أن يظهر على يده أو يد نبي غيره معجزاً آخر- وهو حمل ألفيْ رَطْلٍ- فيكون المعجز أنّ أحدهما أعظم من الآخر مع كون كلّ واحد منهما معجزاً. [1]

هذا هو رأي ابن سنان في القضية، وهذه هي أدلته عليه.

٢- ابن أبي الإصبع المصري (٦٥٤هـ)

فإذا ما تركنا "ابن سنان الخفاجي" وتقدمنا في رحلة البحث البلاغي، وجدنا بلاغياً آخر يصرح بالقول بتفاضُلِ بلاغة القرآن، ويحاول أن يستدلّ على ذلك بأدلةٍ، وإن لم يكن بطول نفس"ابن سنان"، وهو "ابن أبي الإصبع المصري"(ت ٦٥٤هـ) في كتابه " تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنثر" ؛ إذ يقول في (باب التّغاير):

([1]) راجع: سر الفصاحة ص ٢١٤.

" ومثال ما تقع فيه المفاضلة بين الكلامين المختلفيْ المعنى قول الله سبحانه وتعالى :﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ ﴾[1] وقال عزوجل:﴿ إِنَّ اللّهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾[2] الآية، فإن الأولى في الطّبقة العُليا من البلاغة والفصاحة، والثّانية في الطّبقة الوسطى بالنسبة إليها، لأنّ الثّانية وإن كانت بليغة فالأولى أبلغ، وإن كانت كثيرة المعاني فالأولى أكثر، فالأولى أفضل مع كون مقصد الاثنين مغايراً مختلفاً، وعلى هذا فقسْ تُرْشَدْ والله عزوجل أعلم".[3]

ويقول في موطنٍ ثان، وهو(باب التّهذيب والتّأديب):" ولا تجعل كلّ الكلام شريفاً عالياً، ولا وضيعاً نازلاً، بل فصِّله تفصيل العقود، فإنّ العِقْد إذا كان كلُّه نفيساً، لا يظهر حسن فرائده، ولا يَبين كمال واسطته ، وانظر إلى نظم القرآن العزيز، كيف جمع طبقات البلاغة الثلاث ، ليُظهر فضل كلّ طبقةٍ في بابها، وتَبين محكمُ أسبابها، ويُعلم أنّ أدناها بالنسبة إليها يعلو على أعلى الطبقات، من كلام البلغاء، ويربى عليها، فإنّ الكلام إذا كان منوّعاً افتَنَت الأسماعُ فيه، ولم يَلْحَق

---

(1) هود/ ٤٤

(2) النحل/٩٠

(3) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع تحقيق الدكتور حفني شرف (ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٣م) ص ٢٨٩

النّفوسَ مللٌ من ألفاظه ومعانيه".[1]

و في موطنٍ ثالثٍ وهو (باب حُسْن البيان) يقول،:" وبيان الكتاب العزيز وكلّ كلام بليغ فصيحٌ من الأحسن، دون الأقبح ودون الوسائط، لكن الأحسن أيضاً تتفاوت طبقاته كالوسائط، فمنه الأعلى، والأدنى، والأوسط بالنسبة، وحقيقة حسن البيان إخراج المعنى المراد في أحسن الصّور الموضِّحة له، وإيصاله لفهم المخاطب، بأقرب الطّرق وأسهلها، لأنّه عين البلاغة".[2]

هذا هو كلام "ابن أبي الإصبع" في كتابه " تحرير التّحبير" عن هذا القضية، وهو في مجمله يُؤكّد- بصراحةٍ ووضوح – القول بتفاضُل البيان القرآني في بلاغته، وللتأكّد من الثبات على هذا الموقف راجعتُ كتابه "بديع القرآن المجيد" فإذا بي أجده لا يذكر هذا الكلام كلّه في "بديع القرآن" ، ولما كان بديع القرآن لاحقاً في التّأليف لتحرير التّحبير، هممتُ بأنْ أعتبر "ابن أبي الإصبع"، قد تراجع عن موقفه السّابق، لكنّي وجدت له عبارةً في البديع – وإنْ كانت موجزة- جعلتني أتوقف، يقول فيها: "باب حسن البيان" – في بديع القرآن- :" وبيان الكتاب العزيز وكلٌّ بيانٍ بليغ فصيح من الأحسن دون

---

(1) المصدر نفسه ص ٤١٥.

(2) المصدر السابق ص ٤٩٠.

الأقبح، ودون الوسائط البعيدة من البلاغة والقريبة، وكلّ طبقة من هذه الطبقات الثلاث تنقسم أيضاً ثلاثة أقسام: أحسن، وأقبح ، وأوسط بالنسبة".[1]

فبيان الكتاب العزيز من الأحسن، وهذا الأحسن متفاوتٌ، إذن فابن أبي الإصبع ممن يقول بالتّفاضُلِ في البلاغة القرآنية، وقد حاول أن يستدلّ على ذلك بأمرين:

أحدهما:أنّ نظم القرآن العزيز، جمع طبقات البلاغة الثلاث، ليُظهر فضل كلّ طبقةٍ في بابها، وتَبين محكمُ أسبابها، ويُعلم أنّ أدناها بالنسبة إليها، يعلو على أعلى الطبقات، من كلام البلغاء، ويربى عليها.

ثانيهما: أنّ الكلام إذا كان منوّعاً افتَنَت الأسماع فيه، ولم يلحَق النّفوسَ مللٌ من ألفاظه ومعانيه.

وسوف نقف مع هذه الأدلة لدراستها.

ولم يقف "ابن أبي الإصبع" عند حدّ القول بتفاضُل البلاغة القرآنية ومحاولة الاستدلال النّظري عليه، ولكنّه حاول أن يضرب أمثلةً على ذلك، – وهذا ما لم يصنعه "ابن سنان

---

(1) بديع القرآن المجيد لابن أبي الإصبع تقديم وتحقيق حفني محمد شرف(دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٥٧م) ص ٢٠٤.

الخفاجي"- ففاضل بين آيتين من الآيات التي يتجلّى فيها الإعجاز البياني بصورةٍ واضحةٍ، وهما من الآيات التي يَسْتَشهد بها دائماً علماءُ الإعجاز، على تجلّي الإعجاز البياني فيهما، الآية الأولى من "سورة هود"، وهي قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ ﴾[1] وهذه الآية وقف معها تقريباً كلُّ علماء البلاغة، بدءاً من الإمام عبد القاهر، ومروراً بالسّكاكي، وانتهاءً بالمتأخرين والمُحدَثين.

والآية الثّانية من "سورة النحل "وهي قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾[2]، وهي أيضاً من الآيات التي تحدّث عنها العلماءُ كثيراً، واعتبروها من الآيات الجامعة، وقد فضّل "ابن أبي الإصبع" آية "هودٍ" على آية "النحل"؛ حيث جعل الأُولى في الطّبقة العُلْيا من البلاغة والفصاحة، والثّانية في الطبقة الوسطى بالنسبة إليها، و قد حاول أن يُعلّل لحكمه بتعليلٍ مجملٍ فقال:"لأنّ الثّانية- آية النّحل- وإن كانت بليغة فالأُولى - آية هود- أبلغ، وإنْ كانت كثيرة المعاني فالأُولى أكثر، فالأولى أفضل مع كون مقصد الاثنين مغايراً مختلفاً"[3]

ونحن نتحفظ على هذه المفاضلة، ونرفضها رفضاً باتاً لعدة أمورٍ:

---

(1) هود/ ٤٤.

(2) النحل/٩٠.

(3) تحرير التحبير ص ٢٨٩.

١- لأنّ كلّ آيةٍ من الآيتين قد بلغت في سياقها الأفق الأسمى من البلاغة؛ بحيث لا تسدّ إحداهما مسدّ الأخرى.

٢- لافتقادها شرطاً من شروط الموازنة الصحيحة؛ إذ المعنى فيهما مختلف، ولابد من اتحاد المعنى في الآيتين، حتى نستطيع الحكم على إحداهما بأنّها أبلغ من الأخرى.

٣- لعدم ذكره الأسس التي يقوم عليها هذا الحكم، وكان ينبغي عليه أنّ يقول: هذه أبلغ من تلك لكيت وكيت ، ويُعدّد لنا الخصوصيات التي تُعتبر مرتكزاً لحكمه، يقول الإمام عبد القاهر :" ولا يكفي في" علم الفصاحة " أن تنصِبَ لها قياساً ما ، وأن تصفها وصفاً مُجْمَلاً ، وتقول فيها قولاً مُرْسَلاً ، بل لا تكون من معرفتها في شيءٍ ، حتى تُفَصِّلَ القول وتُحَصِّلَ ، وتضعَ اليدَ على الخصائص التي تعرضُ في نظم الكَلِم وتَعُدَّها واحدةً واحدةً ، وتُسَمِّيَها شيئاً شيئاً ،وتكونَ معرفتك معرفة الصَّنَع الحَاذِق، الذي يعلم عِلْمَ كلّ خيطٍ من الإبْرِيسَم الذي في الدِّيباج، وكُلِّ قطعةٍ من القطع المَنْجُورة في الباب المقطَّع ، وكلّ آجُرَّة من الآجُرِّ الذي في البناء البديع".[١]

٤- لأنّه ذكر في تعليله لتفضيل آية "هود" على آية "النحل" أنّها أكثر في المعاني منها، وهذا على خلاف ما ذكره

([١]) دلائل الإعجاز تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر ص ٣٧.

العلماء؛ فقد أرجعوا بلاغة آية "هود" إلى دقة نظمها، ودونك الإمام عبد القاهر، واسمع إليه وهو يقول عن آية "هود" وهل تشكُّ إذا فكرتَ في قولهِ تعالى:" وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" [1]... فتجَلَّى لك منها الإعجازُ، وبَهَرك الذي ترَى وتَسمع، أنّك لم تَجدْ ما وجدتَ منَ المزيَّةِ الظاهرة، والفضيلةِ القاهرة إلا لأمرٍ يرجعُ إلى ارتباطِ هذه الكلم بعضِها ببعضٍ، وأنْ لمَ يعرضْ لها الحُسْنُ والشَّرَفُ إلاّ مِنْ حيثُ لَاقتِ الأولى بالثّانية، والثّالثة بالرّابعة ،وهكذا إلى أن تَسْتَقِريَها إلى آخرها، وأنَّ الفضلَ تَنَاتَجَ ما بينها، وحصلَ من مجموعها ؟.."[2]

فبلاغتها عند الإمام تكمن في دقة نظمها.وأما الآية الثّانية وهي آية "النحل"، فقد تحدّث علماؤنا الأجلاء عند بلاغتها، وصنّفوها مرةً في باب الإطناب ومرةً في باب الإيجاز.

فأبو هلال العسكريّ وقف مع الآيتين، و ذكر آية "هودٍ" في باب الإيجاز ، و آية "النّحل" في باب الإطناب ، يقول – بعدما ذكر التّكرار المحض كما في قصيدتي المهلهل

---

(1) هود/٤٤.

(2) دلائل الإعجاز ص ٤٥.

والحارث بن عبّاد- :" ومما هو أجلّ من هذا كلّه، قول الله عزوجل :﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فالإحسان داخلٌ في العدل، وإيتاء ذي القربى داخلٌ في الإحسان، والفحشاء داخلٌ في المنكر، والبغي داخلٌ في الفحش".(١)

وإذا كان أبو هلال يرى هذه الآية، تجري على طريقة التّكرار المضمر أو الخفي ، وهو شعبةٌ من شُعَبِ الإطناب، فإنّ غيره يراها من باب الإيجاز، يقول فيها الحسن بن علي،كما يروي البيهقي في شُعَب الإيمان:" إنّ الله جمع لكم الخير كلّه والشّر كلّه في آيةٍ واحدةٍ، فو الله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من بغض الله شيئاً إلا جمعه"(٢)، ويقول فيها عبد الله بن مسعود :" ما في القرآن آية أجمع للخير والشر من هذه ".(٣)

كما رُوي أنّ الوليد بن المغيرة أتى النّبي – صلى الله

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق علي محمد البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ص ١٩٥ط المكتبة العصرية بيروت ط ١٤٠٦= ١٩٨٦م.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول . ط. دار الكتب العلمية .بيروت. ط .أولى ١٤١٠هـ .ج ١ ص ١٦١.

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٥٨ ، ص ٤٧٣ وراجع: الإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى ص ٤٩.

عليه وسلم- فقال اقرأ .. فقرأ عليه:﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، فقال: أعِدْ، فأعاد، فقال:" والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدقٌ، وإنّ أعلاه لمثمرٌ، وإنّه ليعلو وما يُعلى عليه ، وإنّه ليَحْطُم ما تحته، وما يقول هذا بشر!!" [2]، فالوليد لا شك قد سمع كثيراً من كلام العرب البليغ، والحاضّ على مكارم الأخلاق ، ولكنّ روعة القرآن وإلهيته، جعلتاه يُقرّر ،وهو ذاهلٌ متعجبٌ وقد أخذته الدهشة:" ما يقول هذا بشر!" [3]، وذلك لأنّ هذه الآية التي تُلِيت عليه، فيها من المعاني، ما يستولي على العقول، حيث أوجبت العدل، والإحسان، وصلة الرحم، و النّهي عن كلِّ منكرٍ

وكلُّ ذلك معانٍ تأخذ بالقلوب قبل الأسماع، و قد وُضعت هذه المعاني في صورة تقابلية، تجمع بين الأمر بالخير والنّهي عن الشّر، في إطارٍ واحدٍ ، ولا يتأتى هذا، إلا مِن إلهٍ، يريد للنّاس الخير؛ ولذلك ختم الوليد مقولته بأنْ قال : " وما

---

(1) النحل /٩٠.

(2) راجع :شعب الإيمان للبيهقي ج١ ص ١٥٨. والرسالة الشافية في وجوه إعجاز القرآن لعبد القاهر الجرجاني(مع الدلائل) تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر مكتبة الأسرة ص ٥٨٥و إعجاز القرآن "في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها" لعبد الكريم الخطيب ج٢ ص ١٨٦ ط دار الفكر العربي ط أولى ١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م.

(3)وجوه من الإعجاز القرآني لمصطفى الدباغ . مكتبة المنار الزرقاء. ط. ثانية. ١٤٠٥-= ١٩٨٥م ص ٢١.

هو بقول بشرٍ" وذاك بيت القصيد : "ما هو بقول بشر "!!!

هذا بعض مما ذُكِرَ عن آية "النّحل" وقد تجلّى لنا منه، أنّها من الطّبقة العليا؛ يدلُّنا على هذا ويُؤكده لنا ذهولُ الوليد بن المغيرة عند سماعها ودهشتُه، وقولُه متعجباً :" وما هذا بقول بشر!!"؛ فلولا أنّها استولت عليه بروعتها وجمالها، ما قال هذا القول.

و على الرّغم من ذلك، فإنّ ابن أبي الإصبع قد فضّل آية "هودٍ" على آية "النحل"، واعتبرها في الطّبقة العُلْيا من البلاغة، بينما اعتبر آية "النحل" في الطّبقة الوسطى، ونحن نوافقه على أنّ آية "هود" من الطبقة العُلْيا، ونخالفه في اعتبار آية" النحل" من الطبقة الوسطى، وإنّما هي أيضاً من الطبقة العُلْيا؛ وكلٌّ منهما في سياقه ومقامه لا يفوقه غيره بلاغة وإعجازاً.

و من هذا الكلام يتضح لنا أنّ الجانب التّطبيقي الذي لجأ إليه "ابن أبي الإصبع"؛ ليُدلّل به على قوله بتفاضُلِ بلاغة القرآن الكريم، لم يَسْلم له، ويبقى كلامه وأدلته النظرية، فسوف نعود إليها لنقف على صحتها أو بطلانها.

٣- بهاء الدين السبكي(٧٧٣هـ) [١]

وقال بهاء الدين السُّبكي تعقيباً على قول الخطيب " ولها – أي البلاغة– طرفان :أعلى وهو حدّ الإعجاز وما يقرب منه": " ظاهره أنّ حدّ الإعجاز لا يتفاوت، وليس كذلك، بل هو لا نهاية له، وما وقع في كلام بعض شُرّاح المِفْتَاح، مما يُوهم خلاف ذلك، لا عبرة به، ثم يرد عليه أن ما يقرب من حدّ الإعجاز ليس أعلى لنقصانه عن حدّ الإعجاز"[٢]

فالسُّبكي يذهب إلى القول بالتّفاضُل، وإن لم يُوضّح كلامه،كما أنّه لم يُدلّل على مذهبه، ولم يستشهد عليه.

---

(١)هو أحمد بن علي بن عبد الكافي، الإمام العلّامة قاضي القضاة، بهاء الدين، أبو حامد بن الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، تقي الدين أبي الحسن السبكي المصري. وُلد في جمادى الآخرة، سنة تسع عشرة وسبعمائة.سمع بمصر والشّام من جماعة ،وقرأ النّحو على أبي حيان وبرع فيه ، وقرأ الأُصول على الأصفهاني، وتفقّه على أبيه، وتميّز، ودرس، وأفتى، وساد صغيراً ،وترأس على أقرانه، وكان كثير الحج والمجاورة والتعبّد والأوراد، وكثير المروءة والإحسان، له كثيرٌ من المصنفات، منها شرح التّلخيص للقزويني، سماه "عروس الأفراح"تُوفي بمكة مجاوراً في شهر رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة. راجع طبقات الشافعية ج٣ ص٧٩.والدرر الكامنة ج١ ص ٢١٦ترجمة ٥٤٤ ، وعروس الأفراح تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي ج١ ص ١٧ط المكتبة العصرية. بيروت. ط أولى ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٣م .

(٢) عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي تحقيق د. عبد الحميد هنداوي ج ١ ص ٩٣.

٤- سعد الدين التّفتازاني (٧٩٢هـ) [١]

ومن البلاغيين الذين قالوا بتفاضُل بلاغة القرآن سعد الدين التّفتازاني، في كتابه المطول؛ إذ يقول :" ولا يخفى أنّ بعض الآيات أعلى طبقة من البعض، وإن كان الجميع مشتركة في امتناع معارضته. وفي" نهاية الإيجاز" أنّ الطرف الأعلى وما يقرب منه كلاهما هو المعجز"[٢]

فالسّعد -رحمه الله- يذهب إلى تفاضُل البلاغة القرآنية، و قدسار على خُطاه جلُّ المتأخرين من البلاغيين،

---

(١) هو مسعود بن عمر التّفتازاني، العلّامة الكبير، صاحب شرحيْ التّلخيص، وحاشية الكشاف، والتّلويح في أصول الفقه، وغيرها من التّصانيف الكثيرة في مختلف العلوم. تُوفي في صفر ٧٩٢هـ راجع الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة لأبي الفضل العسقلاني تحقيق محمد عبد المعيد خان ج ٦ ص١١٢ ط مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الهند ط ثانية ١٣٩٢هـ= ١٩٧٢م. وطبقات المفسرين للداودي تحقيق سليمان بن صالح الخزي ج ١ ص ٣٠١ط مكتبة العلوم والحكم السعودية ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.

(٢) راجع: المطول ص ٣١. والمختصر على تلخيص المفتاح وعليه تجريد العلامة البناني ج ١ ص١٣ ط صبيح ط أولى ١٣٤٧هـ . وشروح التلخيص ج١ص ١٣٨و نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز تحقيق الدكتور نصر الله حاجي مفتي أوغلي ص ٣٤ وعبارة الرازي تُوحي هي الأخرى بأنّ الإمام فخر الدين يرى تفاوت بلاغة القرآن ، لكني راجعت تفسيره للقرآن الكريم ، ووجدته وقف عند قوله تعالى:﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ النساء/٨٢ ، ونقل كلاماً في تفسير الاختلاف المنفي عن القرآن لأبي مسلم الأصفهاني ، يُوحي بأنّه الاختلاف في رتبة الفصاحة، ومن ثَمّ لم أقف عند عبارته هنا، واعتبرت رأيه ما سجله في تفسيره نقلاً عن أبي مسلم الأصفهاني؛ لأنّه ارتضاه.راجع التّفسير الكبير ج٧ ص ١٥٧ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م.

يقول عبد الحكيم السيالكوتي(ت ١٠٦٧هـ) [١] مُعَلِّقاً على كلام السّعد:" قوله – أي السّعد – ولا يخفى أنّ بعض الآيات الخ" دفعٌ لمَا يَرد من أنّه يلزم على هذا التوجُّه، كون الآيات متفاوتة في البلاغة، مع بلوغها حدّ الإعجاز، يعني أنّ بعض الآيات أيْ البعض المُتحدَّى به أعلى طبقةً من بعضٍ، بلا شبهة، فلا ضير في هذا اللازم، وذلك التّفاوت، إمّا بحسب تفاوت المقامات في البعضين كمّاً وكيفاً، وإن كان كلٌّ منهما مطابقاً لجميع ما يقتضيه الحال، فإنّ هذه المطابقة موجبةٌ لتحقق أصل البلاغة؛ لِمَا عرفت من أنّ البلاغة مطابقةُ الكلام لجميع ما يقتضيه الحال، لا لتفاوت درجاتها. وإمّا بحسب رعاية الاعتبارات، لا لأنّه تعالى غير قادر، بل لحكمةٍ: مثل أن يكون المخاطب عاجزاً عن فهمه، فتدبّر، فإنّه مما زلّ فيه الأقدام"[٢]

فعبد الحكيم كما نرى يُؤكّد كلام السّعد، و يحاول أن يُوجّه القول بالتّفاوت بأحد أمرين:

---

(١) هو الملا عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي السيالكوتي، علّامة الهند، والإمام في كثيرٍ من الفنون، له عدة مؤلفات، منها حاشيةٌ على المطول لسعد الدين، وحاشيةٌ على شرح العقائد النسفية للسّعد وحاشية على تفسير البيضاوي (ت ١٠٦٧هـ) راجع تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها للمراغي ط مصطفى البابي الحلبي بمصر ط أولى ١٣٦٩هـ= ١٩٥٠م ص ١٨٦.

(٢) حاشية عبد الحكيم السيالكوتي على المطول ص ٦٢ ط الشّركة الصحافية العثمانية في استانبول(دار سعادات).

الأول: أنّ التّفاوت في البلاغة بين آيات القرآن مبنيّ على تفاوت المقامات بين الآيات كمّاً وكيفاً، وإنْ كان كلٌّ منهما مطابقاً لجميع ما يقتضيه الحال، فإنّ هذه المطابقة موجبةٌ لتحقق أصل البلاغة؛ لِمَا عرفت من أنّ البلاغة مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال، لا لتفاوت درجاتها.

الثّاني:أنّ هذا التّفاوت مبنيّ على عدم رعاية كلِّ الاعتبارات المناسبة، وعدم رعاية كلّ الاعتبارات المناسبة ليس لأنّه تعالى غير قادر، بل لحكمةٍ مثل أنْ يكون المخاطب عاجزاً عن فهمه.

وقد حاول الإنبابي أن يوضّح ذلك بقوله:"تفاوت آيات القرآن في البلاغة، بحسب رعاية الاعتبارات، لا لأنّه –تعالى– غير قادرٍ، بل لحكمةٍ مثل أنّ المخاطبَ عاجزٌ عن فهمه، كما إذا وُجد في بعض الآيات، عشرُ مقاماتٍ مقتضيةٍ لعشر اعتباراتٍ؛ فراعاها كلّها ووُجد في بعضٍ آخر، عشر مقاماتٍ مقتضيةٍ لعشر اعتباراتٍ، وراعى منها خمسة، لكن لا لعجزه – تعالى– عن الخمسة الباقية، بل لحكمةٍ مثل أنّ المخاطب عاجزٌ عن فهم العشرة، ولا قدرة له إلا على الخمسة، أو الإشارة إلى أنّ هذه الآيات التي لم يُراع فيها الجميعُ قد عجزتم عن معارضتها؛ فما بالكم بما إذا رُوعيت الجميع؛ فيكون فيه إشارة إلى شدّة العجز، أفاده عبد الحكيم بتصرّف، لكن قد يُقال إذا عجز المخاطب عن فهم الباقي كان مقتضى الحال تركه كما

علم من قول المصنف وكذا خطاب الذكي مع خطاب الغبي وكما يأتي.

وتقدم عن معاوية في مثل ذلك، أنّ احتمال كونه لحكمةٍ خفيةٍ أو جليةٍ هي التيسير في التّحدي ؛لأنّ الإعجاز حينئذ أقوى وأبلغ لا يُعتد به كيف وهو معيب ظاهر أو موهم فلا يناسب مقام التّحدي بل لا يصح فيه كما لا يخفى، وتقدّم أنّه مأخوذٌ من عبد الحكيم إلا أنّه تصرف. [1]

و قال ابن يعقوب المغربي(ت١١١٠هـ) وهو يُوجّه قول الخطيب "وما يقرب منه" في قوله:" ولها – أي البلاغة– طرفان أعلى وهو حدّ الإعجاز وما يقرب منه":

" ... ويحتمل أن يكون معطوفاً على "هو" ويكون "حدّ الإعجاز" خبراً عنهما؛ فيكون التقدير: وهو: أي :الأعلى وما يقرب منه كلاهما حدّ الإعجاز، وهو صحيحٌ ؛ فإنّ التّنزيل فيه ما هو معناه في البلاغة وما هو دون ذلك، وكلاهما وقع به الإعجاز "[2]

و يُوحي كلام الدّسوقي بأنّه موافقٌ للسّعد فيما ذهب

([1]) تقرير الشمس للإنبابي ج ١ ص ٣٢٧.

([2]) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي – ضمن شروح التلخيص ج ١ ص ١٤٠.

إليه من تفاضُل البلاغة القرآنية [1]

فجلُّ المتأخرين -كما نرى- قال بتفاضُل البلاغة القرآنية، وقد ألقى أغلبُهم هذا القولَ دون توضيح له أو تدليلٍ عليه أو استشهادٍ،وحاول بعضُهم أن يُوجّهه و يُدلّل على صحته- كما كان عند عبد الحكيم- وسوف نرى في المبحث القادم من يردُّ عليهم،كما سنقف نحن مع الأدلة التي احتجّ بها بعضهم في المبحث الثالث.

٥ – الشّيخ عبد المتعال الصعيدي (ت ١٣٨٣هـ= ١٩٦٦م)

والشّيخ عبد المتعال الصعيدي ممن يقول بتفاضُل بلاغة القرآن ؛ إذ يقول تعقيباً على قول الخطيب " وللبلاغة طرفان : أعلى ، إليه تنتهي، وهو حدُّ الإعجاز وما يقرب منه" :

"حدّ الإعجاز: منتهاه؛ لأنّ الحدَّ في اللُّغة : منتهى الشّيء، وما يقرب من الإعجاز، هو ما دونه من مراتب الإعجاز؛ لأنّ الحق أنّ القرآن متفاوتُ الإعجاز، وليست كلُّ آياته في درجة واحدة من البلاغة، وبهذا يكون قوله: " وما يقرب منه"معطوفاً على "حدّ الإعجاز" ، وقيل: إنّه معطوف على

---

(1) حاشية الدسوقي على مختصر السعد- ضمن شروح التلخيص- ج ١ص ١٣٨.

قوله"وهو" على معنى أنّ حدّ الإعجاز، هو الطّرف الأعلى وما يقرب منه كما قال السّكاكي، ولكن حَمْل ما هنا عليه لا يخلو من تكلّفٍ".(١)

٢- المفسرون

ومن المفسرين من يقول بتفاضُل بيان القرآن في فصاحته و بلاغته، وقد نقل الزَّركشي والسُّيوطي قول بعضهم، ومن هؤلاء أبو نصر القُشَيْري(٢).

قال برهان الدّين الزّركشيّ في البرهان :" واختار أبو نصر بن القُشَيْريّ في تفسيره التّفاوُتَ فقال:وقد ردّ على

---

(١) بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ج ١ص ٢٨ .مكتبة الآداب بالقاهرة. ط .السّابعة عشر١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.

(٢) هو إمام الأئمة، وحبر الأُمة، وبحر العلوم ،الأستاذ أبو نصر عبد الرحيم بن الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري، ربّاه والده ،واعتنى به حتى برع في النَّظم والنَّثر، واستوفى الحظّ الأوفى من علم التّفسير والتّأليف فيه، والأُصول، ثم لازم إمام الحرمين؛ حتى أحكم عليه المذهب، والخلاف والأصول، وسمع الحديث من أبيه وأبي عثمان الصّابوني وابن النقور وأبي القاسم الزنجاني وجماعة ،وحدّث الكثير ،ومن العجائب أنّه اعتقل لسانه في آخر عمره عن الكلام إلا عن الذِّكر؛ فكان يتكلم بآي القرآن ، وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة، سنة أربع عشرة وخمسمائة. راجع طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة تحقيق الحافظ عبد العليم خان عالم الكتب بيروت ط أولى ١٤٠٧هـ ج١ ص ٢٨٦ وطبقات المفسرين للداودي تحقيق سليمان صالح مكتبة العلوم والحكم السعودية ط أولى ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م ج١ ص ١٥٦.

الزّجاج وغيره تضعيفهم قراءة " والأرْحَامِ"[1] بالجرّ، ومثل هذا من الكلام مردودٌ عند أئمة الدّين؛ لأنّ القراءات السّبع متواترةٌ عن النّبي – صلى الله عليه وسلم– وإذا ثبت شيءٌ عن النّبي– صلى الله عليه وسلم– فمَنْ ردّ ذلك، فكأنّما ردّ على النّبوّة، وهذا مقامٌ محذورٌ، لا يُقلَّد فيه أئمة اللّغة والنّحو؛ فإنّ العربيّة تتلقّى من النّبي– صلى الله عليه وسلم– ولا يشك أحدٌ في فصاحته ، ولعلّهم أرادوا أنّه صحيحٌ فصيحٌ؛ وإنْ كان غيره أفصح منه، فإنّا لا ندّعي أنّ كلّ ما في القرآن على أرفع الدّرجات في الفصاحة"[2]

فأبو نصر الْقُشَيْرِيّ – كما ذكر الزّركشيّ والسّيوطيّ – يذهب إلى أنّ القرآن فيه الفصيحُ والأفصحُ ، ويرى أنه ليس كلٌّ ما في القرآن على أرفع درجات الفصاحة، ويتوقع أن تكون قراءة الخفض في قوله تعالى:" والأرحامِ" من الفصيح ، ولم يذكر الْقُشَيْرِي حُججاً على ما ذكر.

---

(١) سورة النساء /١ من قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ والخفض هو قراءة إبراهيم النَّخعي وقتادة والأعمش وحمزة ، وقرأ الباقون بالنصب؛ وانظر توجيه القراءتين في تفسير القرطبي ج ٥ ص ط دار الشعب بالقاهرة ٤ .

(٢) ينظر تفسير القرطبي ج ٥ ص ٤، والبرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار المعرفة بيروت لبنان ط ثانية ج ٢ ص ١٢١. والإتقان للسيوطي ط مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة ج ٤ ص ١٠٠٧.

وذكر السّيوطي أنّ البارزيّ[1] في أول كتابه " أنوار التحصيل في أسرار التّنزيل" قال : اعلم أنّ المعنى الواحد قد يُخْبَرُ عنه بألفاظٍ بعضها أحسن من بعضٍ ؛ وكذلك كلُّ واحدٍ من جزأيْ الجملة، قد يُعبّر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، ولابدّ من استحضار معاني الجمل، و استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها، واستحضارُ هذا مُتعذَّر على البشر في أكثر الأحوال؛ وذلك عتيدٌ حاصلٌ في علم الله تعالى ، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح، ولذلك أمثلة، منها: قوله تعالى: " وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ"[2] لو كان مكانه:" وثمر الجنتين قريبٌ"، لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين، ومن جهة أن الثّمر لا يشعر بمصيره إلى حال يُجني فيها، ومن جهة مؤاخاة الفواصل .ومنها: قوله تعالى: " وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ"[3]، أحسن من التّعبير بـــ" تقرأ " لثقله بالهمزة . ومنها : " لاَ

---

(1) هو العلّامة، قاضي القضاة، شرف الدين ،هبة الله ،ابن عبد الرحيم بن إبراهيم المسلم البارزيّ الحموي الشّافعي،أجاز له الشّيخ عزّ الدّين عبد العزيز بن عبد السّلام، له من التّصانيف الكثير،توفي في ذي القعدة سنة ٧٣٨هـــ .راجع طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ج٢ ص ٢٩٨و الوفيات لابن رافع السّلامي ج١ ص ٢٢٦.

(2) الرحمن/٥٤

(3) العنكبوت/ ٤٨

رَيْبَ فِيهِ"[1] أحسن من "لا شكّ فيه"؛ لثقل الإدغام؛ ولهذا كثر ذكر الريب. ومنها.." [2]

فالبارزيّ يبيّن في هذا النّص[3]، أن المعنى الواحد قد يُعبّر عنه بأكثر من طريق ولفظٍ، بعضها أفصح من بعض، ولتحقيق البلاغة في الكلام ينبغي على المتكلم أن يستحضر المقامات وما ينسبها من الاعتبارات والألفاظ، و قد بيِّن أنّ هذا متعذّرٌ على البشر في أكثر الأحوال، لكنّه حاصلٌ في علم الله؛ ومن ثمّ كان القرآن في أعلى طبقة من طبقات البلاغة، ثم ذكر أنّه يتفاوت في درجات هذه البلاغة؛ لاشتماله على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح، وقد ضرب لذلك مجموعة من الأمثلة، وكُلُّها للدِّلالة على دقة القرآن في استخدام الألفاظ المناسبة للمقام، وليست للدلالة على تفاوت بلاغة القرآن، كما أوحى بذلك كلام شيخنا العلّامة الدكتور محمود توفيق سعد.

يقول – رفع الله قدره– :"ما قالَه البارزيّ بُنِيَ على الغفلة عن سياق كُلٍّ، ولو نظر في سياق ما زعم أنَّه أفصح، وسياق ما زعم أنّه أدنى فصاحة؛ لعلم أنّ كُلّاً لا يصلح إلا في

---

(1) البقرة/٢

(2) الإتقان ج ٤ص ١٠١٠.

(3)و جدت أنّ هذا الكلام الذي نسبه السيّوطي للبارزيّ في الحقيقة هو كلام العزّ بن عبد السلام وسوف أوضح ذلك لاحقاً.

سياقه، فالتّجاوز دخل عليه من تركه أصولَ الموازنة إنْ صحتِ العبارةُ.

فإذا كُنّا لا نقول: إنّ قولنا (جاء محمدٌ راكباً) أبلغ منها (راكباً جاء محمد) إلّا إذا تبيّن لنا المقامُ والغرضُ المنصوبُ له البيان، فقد يكون الغرض مجرد الإعلام، بوقوع المجيء من محمدٍ حال الرُّكوب دون شيءٍ آخر، وحينئذ يكون قولنا :(راكباً جاء محمد) لا يأنس بهذا المقام، ويكون قولنا : جاء محمد راكباً هو البليغ الآنس بالسياق والمقام والغرض المنصوب له الكلام.

الحكم بأبلغية صورة، له أصوله وضوابطه، وإذا لم نلتزم بها فإنّنا نقع فيما لا يُحْمَد عقباه.

وممّا يُنسب لسيدنا عليّ أنه حين سُئِل عن أشعر الشُّعراء، وضع أصولاً للموازنة، فإذا كان هذا في كلام البشر، فكيف بالأمر في كلام الله سبحانه وبحمده؟[1]

فشيخنا بنى كلامه على أنّ البارزيّ يُوازن بين تراكيب في القرآن؛ ليُبيّن أنّ بعضَها أفصحُ من بعضٍ، وليس الأمرُ- على ما أفهم- كذلك، إنّما هذه الأمثلة أتى بها البارزيّ؛ ليُبيِّن

([1]) المدخل إلى علم بلاغة العربية للدكتور محمود توفيق ص ١٠١ .

دقة القرآن في وضع الكلمة في المكان المناسب، وذلك لأنّ الله – سبحانه– يعلم المقامات، ويعلم ما يناسبها، من الاعتبارات والألفاظ.

لكن ما أتفق فيه مع شيخنا العلّامة، هو أنّ البارزيّ صرّح بالقول بتفاضُل بلاغة القرآن، وإن لّم يذكر أدلةً على ذلك، ولا أمثلةً.

موقف الزمخشري من تفاضُل بلاغة القرآن:

بيّن الدكتور مصطفى الصَّاوي الجويني في كتابه " منهج الزّمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه" ، موقف العلّامة جار الله الزّمخشريّ(ت٥٣٨هـ) ، من استواء البيان القرآني، فذكر أنّ الزمخشري ممّن يقول بتفاضُل بلاغة القرآن الكريم، يقول الجويني :" و الزّمخشريّ يرى أنّ في القرآن بليغاً وأبلغ؛ وهذا الإحساس الفني لم يُصوّره الزّمخشري ، ولم يُشْبِع القول فيه، ولكنّه كما سنرى مرّ به سريعاً. و الزّمخشريّ يُعلّل لرأيه بأنّ في القرآن بليغاً وأبلغ؛ إذّ يقول : "ليس بواجبٍ أن يجيء بالآكد في كلّ موضع، ولكن يجيء بالوكيد تارة، وبالآكد أخرى، كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في

غيره ليفتنّ الكلام افتناناً[1]

ولنتبعْ تطبيقه العمليّ لرأيه هذا ...يقول الزمخشري في الآية :" إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ "[2] ...

وهذا تحذيرٌ آخر أبلغ من الأوّل :" إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ"[3].

ويقول الزّمخشريّ في الآية :" وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ "[4]، وهو أبلغ من قوله:" إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ"[5]، فهو هنا يُرْسلُ الحُكْم إرسالاً دون تفصيلٍ لوجه العلو في مراتب البلاغة.

وكذلك نراه يقول في الآية:" يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ"[6] ...وهو أبلغ من قوله:" وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ

([1])الكشاف تحقيق عبد الرازق المهدي ج٣ ص ١٠٤ . ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

([2]) الأعراف /٢٧.

([3]) الأعراف /٢٧.وراجع: الكشاف ج ٢ص ٩٤.

([4]) يونس /١٠٧.

([5]) الزمر/٣٨.وراجع: الكشاف ج ٢ ص ٣٥٦.

([6]) الحج/٢٠.

أمْعَاءهُمْ "[1].ويقول في الآية :" وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ "[2] ...وهو أبلغ في الإيعاد من قوله:" قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ "[3]

وقد فصّل شيئاً هنا في الآية:" قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ "[4] هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من:﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[5]، حيث أسْنَدَ الإجرامَ إلى المُخَاطِبِين والعمل إلى المُخَاطَبين، وكذلك الآية :﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ﴾[6] ... هو أبلغ من قوله تعالى:﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [7]، حيث جعل المنفي إرادة الظُّلم؛ لأنّ من كان عن إرادة الظُّلم بعيداً، كان عن الظُّلم أبعد، وحيث نكَّر الظُّلم، كأنّه نفى أن يُريد ظلماً ما للعباد". [8]

فالدكتور مصطفى الجويني يذهب إلى أنّ الزّمخشريّ يرى

([1]) محمد/ ١٥. وراجع: الكشاف ج ٣ ص١٥١.

([2]) المؤمنون/ ١٨.

([3]) الملك /٣٠.وراجع :الكشاف ج ٣ ص ١٨٣.

([4]) سبأ/٢٥.

([5]) سبأ/ ٢٤ وراجع :الكشاف ج ٣ ص ٥٩١.

([6]) غافر/٣١.

([7]) فصلت /٤٦.

([8]) منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٢٦٢. و ص ٣٠٠. راجع: الكشاف ج ٤ ص ١٦٩.

أنّ في القرآن البليغ والأبلغ، ويذكر أنّه لم يُشْبع القول في هذه القضية الفنية ، وإنّما مرّ بها سريعاً ، ثم نقل تعليله لرأيه أنّ في القرآن بليغاً وأبلغ وهو قوله:" ليس بواجبٍ أن يجيء بالآكد في كلّ موضع ، ولكن يجيء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى، كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره؛ ليفتنّ الكلام افتناناً"، وأخيراً تتبّع الجويني تطبيق الزّمخشريّ العمليّ لرأيه؛ فوجده يقول عن كثيرٍ من الآيات ، هذه أبلغ من تلك.

ولي على هذا الكلام عدّة ملاحظات:

الأولى: أنّ الزمخشري لم يُعلّل للقول بتفاضُلِ بلاغة القرآن، وهذا التّعليل الذي نقله الدكتور مصطفى الجويني، إنّما أتى به الزّمخشري ليُعلّل عدم المبالغة في قوله تعالى في سورة الأنبياء:" قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " [1] كما قال تعالى: " قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً " [2]؛ لأنّ التّعبير بالسّر آكد من القول وأبلغ في الدّلالة على علم الله سبحانه.

يقول الزّمخشري:" فإنْ قُلْتَ: فلِمَ ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله : " قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى

([1]) الأنبياء /٤.

([2]) الفرقان /٦.

السَّمَاواتِ وَالأَرْض " قُلْتُ: ليس بواجبٍ أن يجيء بالآكد في كُلّ موضع، ولكنْ يجيء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى، كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره؛ ليفتنّ الكلام افتناناً، وتجمع الغاية وما دونها ، على أنّ أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه، من قِبَل أنّه قدّم ههنا أنّهم أسرُّوا النّجوى؛ فكأنّه أراد أن يقول: إنّ ربي يعلم ما أسرُّوه؛ فوضع القول موضع ذلك؛ للمبالغة وثمّ قصد وصف ذاته بأنْ أنزله الذي يعلم السّر في السموات والأرض فهو كقوله علّام الغيوب " عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ " (١)

فالزمخشري يُعلّل لعدم المبالغة في آية "الأنبياء"، بأنّه ليس من الواجب أنْ يأتي القرآنُ بالآكد أو الأبلغ، في كُلّ موضع، ولكنّ القرآن يأتي بالوكيد والآكد، والحسن والأحسن؛ لتنويع أفانين الكلام وطُرُقه، والمقام هو الحكم في ذلك والفيصل.

الثّانية: هذه الآيات التي أتى بها الدكتور الجويني، واستشهد بها على أنّ الزّمخشري يُوازن بينها، ويقول هذه أبلغ من تلك، كلّها – وهناك غيرها الكثير– ليست أبلغ فيها من البلاغة، وإنّما من المبالغة، وقد راجعت قبل أن أقول هذا

---

(١) سبأ/٣.

الكلام سياقات هذه الآيات وكلام الزمخشري فيها.

الثّالثة:تأمّل قول الزّمخشري عند تفسيره قول الله تعالى:" أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً " [1] أي:"لكان الكثير منه مختلفاً متناقضاً، قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه؛ فكان بعضه بالغاً حدّ الإعجاز وبعضه قاصراً عنه، يمكن معارضته، وبعضه إخباراً بغيب، قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالاً على معنى فاسدٍ غير ملتئم، فلمّا تجاوب كُلُّه بلاغة معجزةً فائتة لقوى البلغاء، وتناصر صحة معان، وصدق إخبار، علم أنّه ليس إلّا من عند قادرٍ على ما لا يقدر عليه غيرُه، عالمٍ بما لا يعلمه أحدٌ سواه"[2]

فإنّه يُوحي بأنّ الزّمخشري يرى بأنّ القرآن ليس متفاوتاً في نظمه و لا في فصاحته ، وإنّما هو مستوّ، والسّبب في ذلك أنّه من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدنا كثيراً منه مختلفاً متناقضاً متفاوتاً.

فما هو الموقف إذن؟!!

([1]) النساء/٨٢

([2]) الكشاف ج١ص٥٧١.

الذي يظهر لي من موقف العلّامة الزمخشري، والذي أفهمه من كلامه وأطمئن إليه- بعد عدم وضوح الأدلة التي ساقها الجويني- أنّ الزمحشري مضطربٌ، فمرةً يقول بعدم تفاضُلِ بلاغة القرآن،كما رأينا في كلامه عند آية النّساء رقم(٨٢).

ومرةً يقول بالتّفاضُلِ كما في العبارة التي ساقها، وهو يُعلّل لعدم مجيء المبالغة في آية الأنبياء السّابقة، وهي قوله:" كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره؛ ليفتنّ الكلام افتناناً"

فما الذي يقصده بالحسن والأحسن؟ وما الذي يقصده بقوله:" ليفتنّ الكلام افتناناً"؟

هل يقصد بالحسن والأحسن الفصيح والأفصح، وبقوله : " ليفتنّ الكلام افتناناً" تنويع أساليب الكلام وطرقه، أيْ أنّ القرآن يأتي بالفصيح والأفصح؛ لينوّع بين الأساليب على طريقة كلام العرب؟

أو أنّ المراد بالحسن والأحسن الوعد الحسن والوعد الأحسن؟ ويبقى القرآن عنده مستوياً في بلاغته.

الاحتمال الأول عندي أقوى، فالزمخشري كان مضطرباً، مرةً يوحي كلامه بالتّفاضُلِ، ومرةً يوحي بعدمه،

لكنّه – كما ذكر الدكتور الجويني– لم يُطل في شرح ذلك، وإنّما مرّ به مروراً سريعاً، كما لم يذكر لنا أمثلةً توضِّح هذا التّفاضل، وما ذكره العلامة الجويني ليس منها كما أسلفت.

ولعل السّر في اضطراب الزمخشري، أنّ أمرين كانا يتنازعانه، أحدهما: اعتزاله. والآخر: بلاغته ودقته في فهم بلاغة القرآن.

فأمّا اعتزاله فله صلةٌ قويةٌ بقوله بالتّفاضُل، وقد كان الزمخشري وفيّاً لاعتزاله، وأما بلاغته ودقته، فقد كانت وراء قوله بعدم التّفاضُل عند آية "النّساء"، كما كانت السّبب وراء عدم إطالته في شرح هذه القضية، والتّدليل عليها، وضرب الأمثلة لها.ويبدو أنّ الزمخشري كان أيضاً وفيّاً لبلاغته وذوقه.

٣- علماء الفقه والأُصول(ت ٤٥٦هـ)

وممن أدلى بدلوه في هذه القضية، علماء الفقه والأُصول، وذلك عند حديثهم عن الدّليل الأوّل من أدلّة الأحكام، وهو (القرآن الكريم)، وجاء في طليعة هؤلاء العلماء، الإمام ابن حزم الأندلسيّ الظاهريّ [1] فقد قال بتفاضُل البيان القرآني،

([1]) هو أبو محمد ،علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي، مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب

في كتابه " الفِصَل في الملل والأهواء والنحل" ، وقد صنّفتُ الرّجل ضمن علماء الفقه والأُصول، على الرّغم من أنّ كلامه عن القضية جاء في كتابٍ في الإلهيات أو في العقيدة، وذلك لشُهْرة الرّجل في الفقه والأُصول، وتعمّقه وتبحّره فيهما.

عقد ابن حزم فصلاً في كتابه" الفَصْل"(بفتح وسكون أو كسر وفتح) عن إعجاز القرآن الكريم، وذهب فيه إلى أنّ القرآن الكريم معجزٌ لجميع العرب وغيرهم من الإنس والجن، وإعجازه باقٍ إلى يوم القيامة، وكلُّه معجزٌ، قليله وكثيره، والمعجز منه نظمه وما فيه من الإخبار بالغيوب، و ليس هذا الأخير- وحدّه- معجزاً – كما روي عن بعضهم- وبرهان ذلك قول الله عزوجل : " َفأتُواْ بسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ "[1] فنصّ على أنهم لا يأتون بمثل سورةٍ من سوره، وأكثر سوره ليس فيها

الأموي، المعروف بيزيد الخير، وُلد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة للهجرة، ونشأ بها ، ومهر في الأدب والأخبار والشّعر، والمنطق والفلسفة، والنحو واللغة، وتعمّق في الفقه على مذهب الشافعي، ثم على مذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري، وله مصنفاتٌ في الفقه والأُصول، والحديث و والتاريخ، والنَّسب والأدب، والردّ على المخالفين، ومن كتبه "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، والمحلى في الفقه . قال الشّيخ عزّ الدّين بن عبد السّلام- وهو أحد المجتهدين- ما رأيت في كتب الإسلام في العلم ،مثل المحلى لابن حزم وكتاب المغني للشيخ موفق الدين. تُوفي- عليه رحمة الله – في آخر شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة، فكان عمره إحدى وسبعين سنة وأشهراً.راجع مقدمة كتاب الفصل لابن حزم تحقيق أحمد شمس الدين ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ثانية ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م ج ١ ص ٥. وسير أعلام النُّبلاء ج١٨ص ١٨٤ وما بعدها، ومعجم الأدباء ج ١ ص٤١٤.

([1]) البقرة /٢٣.

إخبار بغيب، وذهب ابن حزم إلى أنّ وجه إعجازه، هو أنّ الله رفع القوة عن العرب، وحال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله ، وهذا ما يسمى بالصَّرفة.

وحاول ابن حزم أن يحتجّ للقول بالصَّرفة احتجاجاً واسعاً، وكان احتجاجه متجهاً إلى توهين القول بتفوق القرآن في النّظم والبلاغة، وهذا شيءٌ غريب عجيب.

وعند احتجّاجه لدفع أن يكون القرآن في أعلى دَرَج البلاغة، كما قالت طائفة بذلك – على زعمه– وقف مع أمرين:

الأوّل: أنّ القائلين بأنّ القرآن في أعلى رتب البلاغة، ذكروا في سياق الاستشهاد لبلاغة القرآن آيات منه، مثل قوله تعالى:" وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ" [1]

الثّاني: أنّه ذكر آيةً من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى:" إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً "[2]؛ ليقول : إنّه ليس فيه من النّظم ما يعجز؛ لأنّها سرد أسماء، وسرد الأسماء ليس ممّا يتوفر فيه خصائص نظم، ولا

([1]) البقرة/١٧٩.

([2]) النساء م١٦٣.

يصح أن يقال: إنّه ليس بمعجز؛ لأنّ كلّ كلام الله معجز، وإنّما يقال: إنّ نظمه معجزٌ وليس لبلاغته، وإنّما لأنّ الله منع النّاس أن يأتوا بمثله وكساه الإعجاز. [1]

و بخصوص الأمر الأوّل فقد استعاذ بالله ابن حزم منه؛ لأنّه يُوهم أنّ من القرآن معجزاً وغيرَ معجزٍ؛ إذ يُوهم الجهلاءَ أنّ آية البقرة ونحوها من الآيات، التي وقف معها العلماء؛ لإظهار بلاغة القرآن، هي المعجز فحسب أما سائره فلا. قال ابن حزم:فإنْ قالوا جميع القرآن معجزٌ مثل هذه الآيات، ردّ عليهم: فلم خصصتم بالذكر هذه الآيات دون غيرها إذن؟ أليس هذا منكم إيهاماً لأهل الجهل بأنّ من القرآن معجزاً وغير معجز؟!!!

وهذا الذي ذكره ابن حزم – كما ذكر شيخنا الدكتور أبو موسى– لم يتبادر إلى أحدٍ غير ابن حزم لأنّ العلماء إنّما ساقوا ما ساقوا من هذه الآيات؛ لأنّه أظهر في الاستشهاد للمسألة التي هم بصددها؛ فمثلاً يتكلمون عن إيجاز القرآن، ويعتبرونه وجهاً من وجوه بلاغته المعجزة، ويعرضون ما توفّر لديهم من نماذج من القرآن الكريم ، ويذكرون آية: :" وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ" ؛ ليوازنوا بينها وبين أدقّ ما صاغه

([1]) ينظر الفصل ج ٣ ص ٢٧.

بيانهم في معناها؛ ليكشف ما تنطوي عليه الجملة القرآنية من كمال يحيط بمعناها ومبناها، وليكشف ما تنطوي عليه الجملة البشرية من نقص يشوبها، إذا ما وضعت بإزاء الآية، أو قُلْ: كيف يصير كمال بلاغة النّاس نقصاً إذا وضع بإزاء الكمال المطلق الماثل في كلام الله. [1]؛ فأيّ إيهام في ذلك؟!!

وبخصوص الأمر الثّاني الذي ذكر فيه ابن حزم آية النساء رقم (١٦٣) ، ثم قال:" أمعجزٌ هو على شروطكم في كونه في أعلى درجات البلاغة أم ليس معجزاً ؟ فإنْ قالوا ليس معجزاً كفروا، وإنْ قالوا: هو معجزٌ صدقوا. وسُئِلوا: هل على شروطكم في أعلى درج البلاغة ؟ فإنْ قالوا: نعم. كابروا وكفوا مؤنتهم؛ لأنّها أسماء رجال فقط ليس على شروطهم في البلاغة".[2]

فابن حزم يرى أنّ هذه الآية ومثيلاتها من الآيات، التي تُبْنَى على سرد أسماء كقوله تعالى:" حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأخ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم

([1])الإعجاز البلاغي ص ٣٧٩ بتصرف.

([2]) الفصل ج ٣ ص ٢٨.

بهنَّ " [1] ، ليست في أعلى درج البلاغة؛ لأنّ سرد الأسماء، ليس فيه من دقائق النّظم، وعجائب الصياغة، ما يجعلها في الطبقة العُليا، التي يتجلّى فيها الإعجاز، ويهجم الحسن عليك منها، وذلك كما في قوله تعالى﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [2] ، وإذا كان ابن حزم لا يرى بأنّ هذه الآية في أعلى درج البلاغة، فإنّه لا يستبعدها من الإعجاز؛ لأنّها لا تصح أن تكون غير معجزة؛ لأنّ كلام الله عنده كلّه معجز وإعجازه بنظمه، لكن إعجازه ليس لبلاغته، وإنّما للصّرفة.

بقي أمرٌ آخر في كلام ابن حزم يتصل بقضيتنا ، وهو أنّه قد ذكر برهاناً آخر، يحتجّ به على أنّ المعجز في النّظم، ليس بلاغته الفائتة، التي تبهر وتقهر الأطماع، وإنّما هو المنع، وخلاصة هذا الوجه أنّ في القرآن حكايات عن الأقوام ومحاورات بينهم وبين أنبيائهم، من مثل قوله تعالى حكاية عن قوم من أهل النّار أنّهم يقولون: إذا سُئِلوا عن سبب دخولهم النّار:﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ۞ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ۞ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ۞ حَتَّى

([1]) النساء /٢٣.

([2]) هود/ ٤٤.

أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [1]

و حكى تعالى عن كافر قال:﴿ قَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[2]

و حكى عن آخرين أنهم قالوا:﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾[3]

ويذكر ابن حزم أنّ هذا كُلَّه ليس من كلام الله، وإنّما هو من كلام البشر، وقد صيّره الله تعالى كلاماً له بحكايته له، كما صيّره معجزاً ومنع من مماثلته، بعد أن لم يكن معجزاً؛ إذ لم يَقُلْ أحدٌ من أهل الإسلام أنّ كلام غير الله تعالى معجز. [4]

وكأنّ ابن حزم يرى أنّ هذا الكلام الذي حكاه الحق-

([1]) المدثر/٤٣-٤٧.

([2]) المدثر/٢٤-٢٥.

([3]) الإسراء/ ٩٠-٩٣.

([4]) راجع: الفصل ج٣ ص ٢٩، والإعجاز البلاغي ص ٣٧٨.

عزوجل- عن البشر ليس في مستوى كلام الله سبحانه، فهو أدنى منه في البلاغة، لكن لمّا حكاه الله صيّره معجزاً، وإعجازه ليس في بلاغته، وإنّما في منع الخلق عن المماثلة.

وبهذا فإنّ ابن حزم يرى نمطين آخرين من القرآن:أحدهما أبلغ من الآخر؛ فكلام الله أبلغ من الكلام الذي حكاه.

و من هذا العرض يتّضح لنا، أنّ ابن حزم يقول بتفاضُلِ بلاغة القرآن، فالقرآن عنده منه البليغ ومنه الأبلغ، و لعل السّبب في ذلك أنّه يرى أنّ إعجازه بالصّرفة، وليس بالبلاغة .

و حديث ابن حزم عن هذه القضية كما ترى ليس مقصوداً لذاته، وإنّما جاء عرضاً، وهو يناقش من يرى أنّ القرآن معجزٌ بنظمه، وإعجازه في بلاغته، و أنّه في أعلى طبقات البلاغة، ومن ثمّ جاء حديثه عنها مقتضباً تائهاً بين ركام حجاجه، ودفاعه عن الصَّرفة، وعلى الرّغم من ذلك فإنه يعتبر مهماً؛ لأنّ ابن حزم أشار إلى القضية، وحاول أن يضرب لها الأمثلة بنمطين من الآيات: نمطٍ في أعلى درج البلاغة، وهو ما كان على شاكلة آية البقرة (١٧٩)وآية هود (٤٤)، ونمطٍ دون ذلك، وهو ما يُبْنَى على سرد الأسماء أو على حكاية كلام البشر.

موقف العزّ بن عبد السلام (٦٦٠هـ)

وقد نُقِل عن العزّ بن عبد السّلام [١]- رحمه الله – أنّه ممّن يقول بتفاضُلِ بلاغة القرآن، نقل ذلك عنه الزّركشيّ- وكذا السيوطيّ- قال-رحمه الله -:"وإلى هذا – أي التّفاوُت- نحا الشّيخ عزّ الدّين بن عبد السّلام، وأورد سُؤالاً فقال: فإنْ قلتَ: فلِمَ لَمْ يأتِ القرآن جميعه بالأفصح والأملح ؟ وقال : فيه إشكالٌ يسّر الله حلّه.

قال القاضي صدر الدّين موهوب الجزريّ رحمه الله[٢] : "وقع لي حلٌّ هذا الإشكال، بتوفيق الله تعالى؛ فأقول:البارئ

---

(١) هو عبد العزيز بن عبد السّلام بن القاسم بن الحسن بن محمد المهذّب، الشّيخ عزّ الدّين بن عبد السّلام أبو محمد السُّلمي الدّمشقي الشّافعي، شيخ المذهب ومفيد أهله ، له مصنفاتٌ حسانٌ منها: التّفسير، واختصار النّهاية، والقواعد الكبرى والصُغرى، وكتاب الصّلاة والفتاوى الموصلية وغير ذلك ، وُلد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة، وسمع كثيراً، وبرع في المذهب، وجمع علوماً كثيرةً، وأفاد الطلبة، ودرس بعدة مدارس بدمشق، وولي خطابتها، ثمّ سافر إلى مصر و درس بها، وخطب وحكم، وانتهت إليه رئاسةُ الشّافعية ، وقصد بالفتاوى من الآفاق. تُوفي في عاشر جمادى الأولى سنة ٦٦٠هـ وقد نيّف على الثّمانين، ودفن بسفح المقطم، وحضر جنازته السُّلطان الظّاهر. البداية والنهاية لابن كثير ط مكتبة المعارف. بيروت. ج١٣ ص ٢٣٦.

(٢) هو صدر الدّين أبو منصور، موهوب بن عمر بن موهوب، الجزري الشّافعي القاضي بمصر، مولده بالجزيرة ، وقدم الشّام، وتفقّه على شيخ الإسلام، عزّ الدين بن عبد السّلام، وقرأ على السّخاوي، وكان فقيهاً بارعاً أصولياً أديباً نحوياً، قدم الدّيار المصرية ،وولي بها القضاء ، من تصانيفه الدُّر المنظوم في حقائق العلوم و الفتاوى. تُوفي بمصر سنة ٦٦٥هـ ودفن بسفح المقطم ينظر طبقات الشافعية لابن قاض شهبة ج٢ ص ١٥٣.وطبقات الشّافعية الكبرى للسّبكي ج ٨ص ٣٨٧، وهدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لمصطفى القُسْطَنْطِيني ج٦ ص ٤٨٣.

جلّت قدرتُه، له أساليبٌ مختلفةٌ على مجاري تصريف أقداره، فإنّه كان قادراً على إلجاء المشركين، إلى الإقرار بنبوّة محمد -صلى الله عليه وسلم-، قال تعالى:﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[1]، ولكنّه سبحانه أرسل رسولَهُ على أساليب الأسباب والمُسببات، وجاري العوائد الواقعة من أهل الزّمان، ولذلك تكون حروب الأنبياء سِجالاً بينهم وبين الكفار، ويبتدئ أمرُ الأنبياء بأسبابٍ خفيفةٍ ، ولا تزال تنمى وتشتدّ، كلُّ ذلك يدلُّ على أنّ أساليبهم، في الإرسال على ما هو المألوف والمعتاد من أحوال غيرهم.

إذا عُرف ذلك كان مجيء القرآن بغير الأفصح والأملح جميعه؛ لأنّه تحدّاهم بمعارضته على المعتاد، فلو وقع على غير المعتاد لكان ذلك نَمَطاً غير النَّمَط الذي أراده الله -عز وجلّ- في الإعجاز.

ولما كان الأمرُ على ما وصفنا، جاء القرآن على نهج إنشائهم الخطب والأشعارَ وغيرها؛ ليحصل لهم التمكّن من المعارضة، ثم يعجزوا عنها، فيظهر الفَلَج بالحُجَّة؛ لأنّهم لو لم يتمكنوا لكان لهم أن يقولوا: قد أتيتَ بما لا قدرة لنا عليه..."

---

(1) الشعراء /٤

(١)

فالعزّ يرى أنّ القرآن لم يأت كلّه بالأفصح، وإنّما فيه الفصيح والأفصح، ويرى أنّ في السُّؤال عن سرّ ذلك إشكالاً لا يعرفه، و يدعو الله بتيسير حلّه.

وقد أجاب عن هذا الإشكال ، وبيّن سرّه، الصّدر موهوب الجزريّ؛ بما حاصله: أنّه لو جاء القرآن على ذلك؛ لكان على غير النّمط المعتاد في كلام العرب، من الجَمْع بين الأفصح والفصيح، وحينئذ لا تتمّ الحجة في الإعجاز، ومن ثمّ جاء على نمط كلامهم المعتاد – فيه الفصيح والأفصح – ليتمّ ظهور العجز عن معارضته، ولا يقولوا: أتيتَ بما لا قُدْرة لنا على جنسه...

ومما هو جدير بالتّنبيه عليه هنا، أنّ الكلام الذي نسبه السّيوطي للبارزي– وقد سجلته في مبحث المفسرين– هو كلام العزّ بن عبد السّلام في كتابه" الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز"[٢] باختلافٍ طفيفٍ، والعزّ أستاذ البارزيّ، ويبدو أنّه قد نقل كلام شيخه

([١]) ينظر البرهان للزركشي ج ٢ ص ١٢٢– ١٢٣. والإتقان للسيوطي ج ٤ ص ١٠٠٧.

([٢]) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السّلام ط دار الحديث بالقاهرة ص ٢٠٤– ٢٠٥ .

كما أنبِّه- أيضاً- على أنّ العزّ يرى أنّ البلاغة القرآنية متفاوتة في درجاتها، وليس في أصلها، بمعنى أنّه لا يرى في القرآن كلمة واحدةً غير فصيحة، وإنّما يرى أنّ فيه الفصيح والأفصح فقط، وقد ألمح إلى ذلك الشّيخ العزّ- رحمه الله – في قوله في تفسيره لقول الله جل وعلا:﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [1] تأمّل قوله:" اختلافاً تناقضاً من جهة حق وباطل أو من جهة بليغ ومرذول أو اختلافاً في تخبّر الأخبار عمّا يسرون"[2]

كما أكّده في قوله:"يُحْمَلُ القرآنُ على أصحّ المعاني، وأفصح الأقوال، فلا يُحْمَلُ على معنى ضعيفٍ، ولا على لفظٍ ركيكٍ، وكذلك لا يُقدّرُ فيه من المحذوفات إلا أحسنها وأشدّها موافقةً وملايمةً للسّياق"[3]

فالقرآن عند العزّ ليس فيه بليغٌ وغير بليغ – مرذول-، وإنّما فيه بليغٌ وأبلغ.

---

(١) النساء/٨٢.

(٢)تفسير العزّ بن عبد السّلام تحقيق الدكتور عبد الله إبراهيم الوهبي ."دار ابن حزم .بيروت.ط أولى. ١٤١٦هـ=١٩٩٦م ج١/ص٣٣٨.

(٣) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعزّ بن عبد السّلام ص ٢٢٠.

موقف ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)

وقد تعرّض شيخ الإسلام ابن تيمية[١] لقضية التّفاضل بين سور القرآن وآياته، في المجلد السّابع عشر من مجموع فتاويه(الجزء الرّابع في التّفسير) عند تفسير سورة الإخلاص، وقد كتب في هذه القضية ما يربو على المائة صفحة، صال فيها وجال ، وجادل وحاجج، وحشد الأدلّة. وانتهى إلى المفاضلة بين الآيات، وأنّ بعضها أفضل من بعض .

على أنّ حديثه كان مُنْطلِقاً من التّفاضُل في باب الأجر والثّواب، وقد انتهى إلى أنّ القول بأنّ كلام الله بعضه أفضل من بعض، هو القول المأثور عن السّلف، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطّوائف الأربعة وغيرهم. وقد حشد كثيراً من الأدلة من الكتاب والسّنّة على صحة ذلك، كما أنّه تعرّض لغير هذا الوجه من وجوه

---

(١) هو الشّيخ الإمام العلّامة ،الحافظ النّاقد، الفقيه المجتهد، المفسر البارع ،شيخ الإسلام تقي الدّين، أبو العباس أحمد بن المفتي، شهاب الدّين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد، شيخ الإسلام مجد الدّين ،عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني، وتيمية لقب جده الأعلى، عُني بالحديث وبرع فيه،ثم إنّه أقبل على الفقه ودقائقه وغاص على مباحثه، فأتى فيه بالعجب،كما كان آية في التّفسير، وفي علم الكلام.تُوفي في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.راجع طبقات الحفّاظ للسُّيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.دار الكتب العلمية.بيروت ط أولى١٤٠٣هـ ج ١ص ٥٢٠،ومعجم المحدّثين للذهبي تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة.مكتبة الصِّدّيق بالطائف ط أولى ١٤٠٨هـ ج١ص ٨٠، والوافي بالوفيات للصّفدي تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى . دار إحياء التراث بيروت ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م ج٧ ص١١.

التفاضُل، مثل التّفاضُل باعتبار المعنى المُتَحَدَّث عنه أو فيه، والتَّفاضُل في أنواع الإيجاب والتحريم، ولم يتعرّض للتّفاضُل البياني صرّاحة، إلا أنّه في حديثه عن التّفاضل في أنواع الإيجاب والتحريم، وعن الوجوه الأخرى ذكر أنّ خلافاً وقع بين العلماء فيما يشمله هذا التّفاضُل، هل يتعلق بالثّواب والعقاب أو بالألفاظ والمعاني أو يعم الجميع؟ ، وذكر أنّ الجمهور يقولون بالتّفاضُل في الأمرين؛ لأنّ كون أحد الفعلين ثوابه أعظم وعقابه أعظم، دليل على أنّ الأمر به والنّهي عنه أوكد. [1]

و قد مال ابن تيمية إلى أنّ التّفاضُل يعمّ المعاني والألفاظ، ومن ثمّ صنّفه بعض الباحثين مع من يقول بالمفاضلة بين الآيات من النّاحية البيانية[2]، وأميل إلى ذلك؛ لأنّ كلام ابن تيمية يُوحي بذلك، تأمّل قوله:" والذي يجد النّاس من أنفسهم أنّ الشخص الواحد تتفاضل أحواله في أنواع الكلام، بل وفي الكلام الواحد يتفاضل ما يقوم بقلبه من المعاني وما يقوم بلسانه من الألفاظ، بحيث قد يكون إذا كان طالباً، هو أشد رغبةً ومحبةً وطلباً لأحد الأمرين منه للآخر، ويكون صوته به أقوى، ولفظه به أفصح، وحاله في الطّلب أقوى وأشد تأثيراً، ولهذا يكون للكلمة الواحدة من الموعظة، بل للآية الواحدة إذا سمعت من اثنين، من ظهور التّفاضُل ما لا يخفى على

([1]) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٧ ص ٥٩- ٦٠.

([2]) البيان في إعجاز القرآن للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي ط دار عمار للنشر والتوزيع ط الثالثة ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م ص ١١٨.

عاقل، والأمر في ذلك أظهر وأشهر من أن يحتاج إلى تمثيل، وكذلك في الخبر، قد يقوم بقلبه من المعرفة والعلم، وتصور المعلوم وشهود القلب إياه باللسان من حسن التّعبير عنه لفظاً وصوتاً ما لا يقاربه ما يقوم بالقلب واللّسان إذا أخبر عن غيره.فهذا نوع إشارة إلى قول من يقول بتفضيل بعض كلام الله على بعض موافقاً لما دلّ عليه الكتاب والسُّنة وكلام السَّلف والأئمة"[1]

فهذا الكلام يوحي بأنّه يذهب إلى التّفاضُل البياني، ويُؤكّد لنا هذا الفهم ردُّه على أبي الحسن الأشعري والقاضي الباقلاني؛ لأنهما يرفضانه، ومن المعروف والمُسلَّم به أنّ الذي يرفضه الإمامان هو التّفاضُل البياني.

([1]) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٧ ص ٦٧.

المبحث الثاني:

القَائِلُونَ بِاسْتِوَاءِ البيَانِ القُرآنِي وحُجَجُهم

مدخل:

تجلّى لنا ممّا سبق عرضه في هذه القضية، أنّ القول بتفاضُل البيان القرآني كان أسبق من القول بالمنع، كما تبيّن لنا أنّ هذا القول لم يُشتهر إلا في بداية القرن الثالث للهجرة، وأنّ عدة طوائف قد شاركتْ في هذا القول، وهم : البلاغيون والمفسرون وعلماء الأصول، وهذه الطوائف هي أشهر من تكلّم في القضية، وذلك لصلتهم الوثيقة بكتاب الله الكريم.

أما علماء علوم القرآن فليس لهم قولٌ مستقلٌ، إنّما كانوا ينقلون آراء العلماء في القضية أخذاً ورداً، وعلماء الإعجاز اشتهر موقفهم بالرّفض للقول بالتّفاضُل، ويبدو أنّ هذا القول قد أفزعهم، ومن ثمّ وجدناهم منذ بواكير التأليف في الإعجاز القرآني يتصدّون له، ويردّون عليه، و يعتبرون استواء البيان القرآني وجهاً من وجوه الإعجاز.

وإذا كنّا في الصفحات السّابقة قد رصدنا وجهة نظر القائلين بالتّفاضُل، فإنّنا –بعون الله ومدده– نحاول في الصّفحات القادمة، أنّ نعرض وجهة النّظر الأخرى في القضية؛

تمهيداً لعرض الوجهة التي نرتضيها في نهاية المطاف، وسوف نقف أيضاً مع أشهر الطوائف التي لها صلةٌ وثيقةٌ بكتاب الله- جل وعلا-؛ لنجلي موقف العلماء الرّافضين لهذا القول منهم.

أولاً: علماء الإعجاز:

لم أجد- فيما أعلم - أحداً من علماء الإعجاز قال بتفاضُلِ بلاغة القرآن وتفاوتها، وإنّما وقف جميعهم صفاً واحداً في وجه هذه المقولة، ينكرونها، ويردُّون على حُجَج أصحابها.

على أنّني أعني بعلماء الإعجاز، هؤلاء العلماء الذين كتبوا كتباً أو رسائل في الإعجاز، واشتُهروا بذلك، ولست أعني كُلَّ من تحدّث في قضية الإعجاز، لأنّ كُلَّ من أقف معهم- على اختلاف طوائفهم وانتماءاتهم العلمية- إنّما يتكلَّمُون في قضية الإعجاز.

وسأقف مع بعض هؤلاء العلماء، الذين اشتُهروا بين علماء الإعجاز، قديماً وحديثاً؛ لأُجلّي موقفهم من هذه القضية.

١- أبو سليمان الخطابيّ(ت ٣٨٨هـ)

الذي يقرأ كتاب أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي " بيان إعجاز القرآن" يشعر من أوّل وهلةٍ بأنّ الخطابيّ- عليه رحمة الله- ممّن يؤمن باستواء البيان

القرآني وتفاوُت البيان البشري؛ يدلُّك على ذلك حديثُ الرّجل في أول كتابه؛ إذ نراه قد تحدّث عن وجوه إعجاز القرآن عند السّابقين، و منها "بلاغته"، وذكر أنّ القائلين بهذا الوجه هم الأكثرون من علماء النّظر، ثم بيّن بأنّ عامة أهل هذه المقالة، قد جروا في تسليم هذه الصّفة للقرآن، على نوع من التّقليد، وضربٍ من غلبة الظّن، دون التّحقيق له، وإحاطة العلم به؛ ولذلك صاروا إذا سُئِلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختصّ بها القرآن، الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميّز به، عن وصفها سائر البلاغات، قالوا إنّه لا يمكننا تصويره، ولا تحديده بأمر ظاهر، نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام..."وقد بيّن أنّ هذا الجواب لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفي من داء الجهل به، وإنّما هو إشكالٌ أحيل به على إبهام، ومن ثمّ قال من لم يرض من المعرفة بظاهر السّمة دون البحث عن باطن العلة، فليعلم أنّ السّبب له، والعلة فيه... [1]وبدأ يعدّد بعض الأمور التي يُعلّل بها لمباينة البيان القرآني للبيان البشري أوجزها- من خلال فهمي لكلامه- فيما يأتي:

([1]) راجع: بيان إعجاز القرآن – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن- ط دار المعارف بمصر .ص ٢٢ وما بعدها.

١- استواء البيان القرآني وتفاوت البيان البشري

ذكر الخطابي أنّ البيان القرآني يُباين البيان البشري، والسّبب في ذلك، أنّ أجناس الكلام – البشري- مختلفةٌ، ومراتبها في نسبة التّبيان متفاوتةٌ، ودرجاتها في البلاغة متباينةٌ غير متساويةٍ، فمنها البليغُ الرّصينُ الجَزْلُ، ومنها الفصيحُ القريبُ السَّهلُ، ومنها الجائز الطّلْقُ الرَّسْلُ.

وقد ذكر أنّ هذه الأقسام، هي أقسامُ الكلام الفاضل المحمود، دون النّوع الهجين المذموم، الذي لا يُوجد في القرآن شيءٌ منه ألبتة.وبيّن أنّ القسم الأوّل أعلى طبقات الكلام وأرفعها، والقسم الثّاني أوسطها وأقصدها، والقسم الثّالث أدناها وأقربها، وذكر أنّ بلاغات القرآن حازت من كلّ قسم من هذه الأقسام حصةً، وأخذت من كلّ نوع من أنواع شعبةً، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمطٌ من الكلام، يجمع صفتي الفخامة والعذوبة،وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين؛ لأنّ العذوبة نتاج السّهولة، والجزالة والمتانة في الكلام، تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه- مع نُبُوّ كلّ واحد منهما على الآخر- فضيلةً خُصَّ بها القرآن،

يسّرها الله بلطيف قدرته من أمره؛ ليكون آيةً بينةً لنبيّه، ودلالةً له على صحة ما دعا إليه، من أمر دينه".[1]

فالخطابيّ في هذا الكلام ،بعد أنْ تذوّق حلاوة كلام الله جلّ وعلا، عاد إلى كلام البشر وسبر أغواره، ثمّ استطاع أن يلمس بيديه أنّ التّفاوت في البيان وفي أقدار الكلام، وصفٌ لازم لبلاغة البشر، وذلك لأنّ التّفاوت في كلام النّاس، خصوصيةٌ من خصائص نفوسهم، وحالٌ من أحوال بشريتهم؛ فهذه النّفوس تعتورها عوارض القوّة والضعف، والإحكام والاختلال، وذلك كائنٌ فيها لا محالة، وقد ذكر أنّ الكلام المحمود، يتنزّل على مراتب ثلاثةٍ: البليغ الرّصين الجزل ، وهو أعلاها، والفصيح القريب السهل وهو أوسطها، والجائز الطَّلْق الرَّسْل، وهو أدناها.

وقد تُوجد هذه المراتب الثّلاث، على التفرُّق في كلام البشر، فأمّا أنْ تُوجد مجموعةً في نوع واحدٍ من الكلام، فلم تُوجد إلا في كلام الله جلّ وعلا.

وفقدان هذا التّفاوُت في القرآن العظيم دليلٌ على سماويته وربانيته، وذلك لأنّ طبعه مغاير لطبع كلام النّاس.

---

(1) بيان إعجاز القرآن ص ٢٦.

على أنّ كلام الخطابي، قد شابه شيءٌ من اللَّبْس ؛لأنّه ذكر مراتب الكلام المحمود، وذكر أنّ بلاغة القرآن قد حازت، من كلّ قِسْمٍ من هذه الأقسام حصة؛ حتى انتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمطٌ من الكلام، يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين؛ دون أن يذكر أنّ هذا التّفاوت، غير كائنٍ في الكتاب العزيز؛ ومن ثمّ اختلط الأمر على بعض الباحثين[1] ؛ فذكر أنّ هذه الأقسام جاءت في القرآن على الانفراد، فوقع في دائر القول بالتّفاوُت الذي يجتهد الخطابي في نفيه عن القرآن وجعله خصوصية لكلام النّاس، وسوف أحرّر هذه المسألة أكثر عند إبراز موقف بنت الشاطئ عليها رحمة الله

على أنّ هناك من لم يُعْجِبه كلام الخطابيّ، في ترتيب درجات الكلام؛ لأنّه يرى أنّ هذا التّرتيب مجافٍ لروح البلاغة، التي هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فكلّ طبقةٍ في نظره أبلغ من الأخرى في مقامها، يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب تعقيباً على كلام الخطابي السّابق:" ونحن لا نوافق الخطابي على رأيه هذا في الترتيب الذي رتّب فيه درجات الكلام، فجعل الرّصين الجزل أعلاها، وجعل الفصيح القريب السّهل في درجة دون هذه الدرجة...

([1]) الإعجاز البياني للقرآن للدكتورة عائشة عبد الرحمن .دار المعارف ط ثانية.١٤٠٤هـ=١٩٨٤م ص ١٠٢.

فهذا الإطلاق في تفضيل الرّصين الجزل دائماً على الفصيح القريب السّهل...لا يستقيم أبداً مع البلاغة، ولا يجيء على شرطها، وهو المطابقة لمقتضى الحال... فليس الرّصين الجزل محموداً، في مقام يقتضي اللّين والسهولة،كما أنّ اللّين السهل ليس محموداً، في حال تقتضي الرّصين الجزل...

فهذا مقامٌ، وذاك مقامٌ، وهذا مقالٌ، وذاك مقالٌ... ولكلّ مقامٍ مقالٌ كما يقولون، أو لكلّ مقالٍ مقامٌ كما يمكن أن يقال ! (١)

وأوافق الأستاذ عبد الكريم الخطيب فيما ذكره، من أنّ كلّ طبقةٍ في مقامها، أبلغ من غيرها، ولا أوافقه على اعتراضه على الخطابي؛ لأنّ الخطابي حينما تكلّم عن أقسام الكلام المحمود، فإنّه لم يتكلّم عنها في مقاماتها، وإنّما تكلّم عنها في ذاتها، فقال: هذا القسم يحوي من المزايا الكثير؛ ولذا فهو في أعلى طبقة من البلاغة، وهذا القسم دونه؛ ولذا فهو في الطّبقة الوسطى، وذاك القسم دونهما؛ ولذا فهو في الطّبقة الدنيا.

وهو بهذا يمهّد للحديث عن أسلوب القرآن، الذي أخذ قسطاً من كلّ هذه الدّرجات، وامتزجت فيه مزايا كلُّ هذه

---

(١) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب .دار الفكر العربي. ص ١٦٤- ١٦٦.

الطبقات، حتى أصبح متفرّداً لا تُطيقه البشر؛ لأنّهم يتكلمون بهذه الطبقات على الانفراد، بينما أتى بها القرآن الكريم ممتزجة في أسلوبٍ واحدٍ.

قلتُ هذا لأنّ الخطابي يعي جيداً مفهوم البلاغة، ويعي جيداً أنّ البلاغة تقتضي أن تجيء كلُّ طبقةٍ من طبقات الكلام في مقامها الذي يناسبها، ونحن نتكلم كالخطابي، فنقول المجاز في ذاته أبلغ من الحقيقة، لكنّها في مقامها أبلغُ منه.

المهم هنا أن نعلم أنّ الخطابي جعل الاستواء من سمات كلام الله، و التّفاوت من سمات كلام البشر .

٢- استمرار بلاغة القرآن في الألفاظ والمعاني والنّظم

يرى الخطابي أن بلاغة الكلام ،تعود إلى اللّفظ والمعنى والنّظم، فالثلاثة مراجع ترجع إليها مزايا الكلام، وذكر أنّ هذه الفضائل الثلاث، قد تُوجد في كلام البشر على الانفراد، فأمّا أن تُوجد مجتمعةً وباستمرارٍ في كلامٍ واحدٍ، فلم تُوجد إلا في كلام العليّ القدير، وقد حاول أن يُعلّل لذلك فقال:

"وإنّما تعذّر على البشر الإتيانُ بمثله لأمورٍ: منها: أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها، التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تُدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاءِ

جميع وجوه النظوم، التي بها يكون ائتلافُها وارتباطُ بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها، إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثّلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم".[1]

و حاول أن يصف المدى الذي وصلت إليه بلاغة القرآن فقال:"وإذا تأمَّلت القرآن، وجدت هذه الأمور منه، في غاية الشّرف والفضيلة؛ حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ، أفصح ولا أجزل ولا أعزب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشدّ تلاؤماً، وتشاكلاً من نظمه. وأمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقل، أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدّم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثّلاث على التّفرُّق في أنواع الكلام، فأمّا أن تُوجد مجموعة في نوع واحدٍ منه، فلم تُوجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كلّ شيء عدداً.

فتفهم الآن واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزاً ؛لأنّه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصحّ المعاني.... ومعلوم أنّ الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتّسق، أمرٌ تعجز عنه قوى البشر، ولا

---

(1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٢٦ وما بعدها.

تبلغه قدَرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله... [1]

فألفاظ القرآن ومعانيه ونظمه، كلٌّ شيءٍ منها، موضوعٌ في موضعه، الذي لا يُرى شيءٌ أولى منه، ولا يُرى في صورة العقل أمرٌ أليق به، ومن ثمّ جاء القرآن مستوياً في مستواه البياني، لا تفاوُت فيه.

٣- القرآن يضع اللفظ في موضعه الأخصّ الأشكل به

وبعد أنْ شرح الخطابي الأصل الذي تعود إليه بلاغة القرآن، وبيّن استمراره في القرآن من أوله إلى آخره، اعتنى بالجانب التّطبيقي؛ فذكر أنّ عمود هذه البلاغة، التي تجمع لها هذه الصّفات، هو وضع كلّ نوع من الألفاظ، التي تشتمل عليها فصول الكلام، في موضعه الأخصّ الأشكل به، الذي إذا أبدِل مكانه غيرُه جاء منه : إمّا تبدُّلٌ في المعنى، الذي يكون منه فسادُ الكلام، وإمّا ذهاب الرَّونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أنّ في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر النّاس أنّها متساويةٌ، في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة، والحمد والشّكر، والبخل والشّح، وكالنّعت والصّفة،وكقولك اقعد واجلس، وبَلَى ونعم، وذلك وذاك ومِنْ

---

(١) المصدر نفسه

عَنْ، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصّفات، ..والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك؛ لأنّ لكلّ لفظة منها خاصيّة، تتميّز بها عن صاحبتها، في بعض معانيها، وإنْ كانا قد يشتركان في بعضها..." [1]

ومضى الخطابيّ في دقةٍ متناهيةٍ، يُفرّق بين هذه الألفاظ التي تحدّث عنها، و قد بيّن أنّ لكلّ مقامٍ لفظاً يناسبه، وهو بهذا الكلام، يُؤكِّد لنا على أنّ كلّ لفظة، في كتاب الله العظيم، موضوعة في مكانها،وتُؤدّي دورها كاملاً، وهي في غاية الفصاحة، بحيث لو نزعتَها، ورُحتَ تبحثُ عن غيرها، فلن تجد أخرى تسدّ مسدها ، وتؤدي دورها.

وهذا الفهم ينقض القول بتفاضُل البيان القرآني؛ لأنّ القول بالتّفاضُل يُوحي بأنّ بعض المقامات، لم تستوف بعض الاعتبارات المناسبة لها، أو بعض الألفاظ الخاصّة بها، ومن ثمّ جاءت دون غيرها، في الفصاحة والبلاغة، والخطابيّ يُؤكّد على أنّ كلّ لفظةٍ في الكتاب الكريم ، قد وُضعت في موضعها الأشكل بها؛ بحيث إذا أُبدِل مكانها غيرها حدث: إمّا تبدّل في المعنى، الذي ينتج عنه فسادُ الكلام ، وإمّا ذهاب الرّونق، الذي ينتج عنه سقوط البلاغة.

---

(1) ثلاث رسائل ص ٢٩.

ومن الواضح البيّن هنا، أنّ الخطابي بحديثه هذا، يدفع عن القرآن التّفاوُتَ في درجات الفصاحة، وليس في أصل الفصاحة، وذلك لأنّه وقف مع بعض الألفاظ المتقاربة في المعاني، والتي يحسب أكثرُ النّاس أنّها متساويةٌ، في إفادة بيان مراد الخطاب، وقد بيّن أنّها – وإنْ كانت كلُّها فصيحةً– ليست متساوية؛ لأنّ لكلّ لفظةٍ منها خاصّيّة تتميّز بها عن صاحبتها، في بعض معانيها، وإنْ كانا قد يشتركان في بعضها.

أما الموطنان القادمان فسوف يدفع عن القرآن التّفاوت في أصل الفصاحة.

٤– القرآن الكريم ليس به ابتذالٌ ولا غرابةٌ.

ولم يقف جهد الخطابيّ عند هذا الحدّ، ولكنّه في معرض ردِّه على بعض أعداء الإسلام، الذين حاولوا الطّعن على القرآن الكريم، طرح سؤالاً يتّصل بهذه القضية، فقال: "فإنْ قيل: إنّا إذا تلونا القرآن، وتأمّلناه، وجدنا معظم كلامه مبنياً ومؤلفاً من ألفاظٍ مُبْتَذَلةٍ، في مخاطبات العرب، مستعملةٍ في محاوراتهم، وحظّ الغريب المُشْكل منه، بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليلٌ، وعدد الفِقَر والغُرَر من ألفاظه، بالقياس إلى مبادئه ومراسيله عددٌ يسيرٌ، فكيف يُتوهّم عليهم العجز عن معارضته والإتيان بمثله، وهم عربٌ فصحاء مقتدرون على التّصرف في أودية الكلام، عارفون بنظومه، قصيده ورجزه

وسجعه، وسائر فنونه...." [1]

وهذا السّؤال و إن لمّ يكن نصاً في قضيتنا، إلا أنه يتعلق بها عن قرب؛ إذ يُوحي بأنّ قائلاً يدّعي على القرآن الكريم أنّه مبني من ألفاظ مبتذلة في كلام العرب، وأنّ عدد الفِقر والغُرَر[2] من ألفاظه بالقياس إلى مباذله ومراسيله عددٌ يسير،ثم يسأل: كيف يُتوهّم على العرب العجز عن معارضته والإتيان بمثله...؟!

وهذا السّؤال يُوحي من بدايته بأنّ البيان القرآني متفاوتٌ؛ منه الفصيح البليغ، ومنه المبتذل، والمبتذل بالنسبة إلى الجيد أكثر.

والخطابي يُجيب على هذا السّؤال؛ بما يوحي بأنّ القرآن في غاية الفصاحة والبلاغة، فكلُّه غُرَرٌ وفِقرٌ فيقول:" إنّا قدّمنا من بيان أوصاف بلاغة القرآن، وذكرنا من شرائطها ما أسقطنا به عن أنفسنا هذا السّؤال.وزعمنا أنها أمورٌ لا تجتمع

([1]) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٣٥.

([2])الفقَر خَرَزَات الظَّهر، الواحدة فِقْرَة، وأَجود ببيت في القصيدة يسمى فِقْرَةً تشبيهاً بفِقْرة الظّهر . وغُرّةُ الفرسِ البياضُ الذي يكون في وجهه، والأَغَرُّ الأَبيض من كل شيء ،وغُرّة الشيء أَوله وأَكرمُه، والغُرَر ثلاث ليال من أول كل شهر، سُمِّين غُرَراً واحدها غُرّة تشبيهاً بغُرّة الفرس في جبهته لأَن البياض فيه أَول شيءٍ فيه. اللسان مادة فقر،غرر.والمعنى أنّ عدد الجيد الظاهر من ألفاظه بالقياس إلى مباذله قليل ...

لأحدٍ من البشر، ولا يجوز أنْ تأتي عليها قدرته، وإنْ كان أفصحَ النّاس وأعرفهم بطُرق الكلام وأساليب فنون البيان، وذكرنا العلة في ذلك، وبيّنا المعنى فيه، ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التي منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه، وملابسه التي هي نظوم تاليفه".[1]

فجوابه باختصار أنّ القرآن قد أعجز العرب ببلاغته، وهذه البلاغة تعود إلى ألفاظه ومعانيه ونظمه. فألفاظه ليس بها ابتذال ، ومعانيه ليس بها اضطراب ، ونظمه ليس به فسادٌ، و كلُّ شيءٍ فيه موضوعٌ في موضعه اللائق به، ومن ثمّ فهو كلُّه على درجةٍ واحدةٍ في المستوى البياني، ولا هبوط فيه عن هذا المستوى، وصدق الله في قوله:﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [2]

ثم أجاب الخطابيّ عن قلّة الغريب في ألفاظ القرآن، بأنّ الغرابة ليست شرطاً في تحقق البلاغة، وإنّما يكثر وحشي الغريب في كلام الأوحاش من النّاس، والأجلاف من جفاة العرب، الذين يذهبون مذاهب العنجهية، ولا يعرفون تقطيع

---

(1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٣٦.

(٢) الإسراء/٨٨.

الكلام وتنزيله والتخيّر له، وليس ذلك معدوداً في النّوع الأفضل من أنواعه، وإنّما المختار منه النّمط الأقصد، الذي جاء به القرآن.. ".[1]

٥- ليس في القرآن كلام غير فصيح

ثم تعرّض الخطابي لأمرٍ آخر يتعلق بقضيتنا، وهو الرّد على زعم بعض الطّاعنين على القرآن الكريم ، بوجود غير الفصيح فيه؛ إذ زعموا أنّ بعض الكلمات القرآنية، ليست واقعة على أفصح وجوه البيان وأحسنها، وكذلك بعض الصياغات، وقد تصدّى الخطابي لهذه الافتراءات الباطلة، والمزاعم الكاذبة، فردّ عليها واحدةً واحدةً، مفنداً إياها، ومبيِّناً خطأها، كما جلّى وجه الصّواب والجمال، في التّعبير القرآني الذي زعموا فيه الضّعف و عدم المناسبة .

ومن هذه المزاعم والافتراءات ، قولهم في قوله تعالى"﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [2]، أنّ كلمة (أكل) ليست واقعة موقعها الصّحيح؛ لأنّ العرب إنّما تستعمل في هذا المقام- في فعل السّباع خصوصاً- كلمة " الافتراس"، يقال: افترسه السَّبُعُ.وهذا هو المختار الفصيح في معناه، فأمّا الأكل، فهو عام لا يختص

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٣٧.

(٢) يوسف/.١٧

به نوعٌ من الحيوان، دون نوع آخر.

وقد أجاب الخطابي عن ذلك بدقةٍ متناهيةٍ؛ تشي بعمق فهمه للمقامات، وما يناسبها من الألفاظ والاعتبارات،كما تُبرهن على فقهه لاستعمال العرب للغتها، وفي الجهة المقابلة يُظهر جواب الخطابي، السائل على أنّه إمّا جاهل وإمّا معاند، تأمّل قوله

"فأما قوله تعالى:﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ فإنّ الافتراس معناه في السّبع، القتل فحسب، وأصل الفَرْس دق العنق، والقوم إنمّا ادعوا على الذّئب أنّه أكله أكلاً، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظماً، وذلك أنّهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثرٍ باقٍ منه، يشهد بصحة ما ذكروه، فادّعوا فيه الأكل؛ ليُزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفَرْس لا يُعطى تمام هذا المعنى، فلم يَصلح على هذا أن يُعبر عنه إلا بالأكل؛ على أنّ لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذّئب وغيره من السِّباع... "[1]

فقد وضّح الخطابي أنّ كلمة "أكل"، التي جاءت في البيان القرآني، دقيقةٌ في استعمالها،لا تسدّ مسدَّها الكلمة المقترحة، وهي:"افترس"،وذلك لأنّ الكلمة القرآنية، تُوحي بما يرمي إليه إخوة يوسف، من حذرهم واحتياطهم من مطالبة

([1]) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٣٨ وما بعدها

أبيهم يعقوب- عليه السلام- بأثر باق منه يشهد على صحة ما ذكروه، بخلاف كلمة "افترس "؛ فإنها لا توحي بذلك؛ ومن ثمّ آثر التّعبير القرآني كلمة "أكل" على كلمة "افترس " ؛لأنّها تصف حال نفوسهم، وتكشف ما يدور بخلدهم، أضف إلى ذلك أن استعمالها ليس غريباً على العرب ، فقد جاء في فصيح كلام العرب، شعره ونثره.

و من هذه الافتراءات أيضاً ما زعموه في قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [1] قالوا:وما اليسير والعسير، من الكيل والاكتيال، وما وجه اختصاصه بهذه، وأنت لا تسمع فصيحاً يقول:كِلْتُ لزيدٍ كيلاً يسيراً إلا أن يعني به، أنّه يسير العدد والكمية ؟"فإنّهم يزعمون أنّ وصف الكيل باليسير في هذا السياق غير دقيق، لأنّه يُوحي بالقِلّة، وهذا غير مراد من النّظم الجليل،إذاً فهو استعمال خاطئ.

ويجيب الخطابي عن هذه الشّبهة إجابة توضّح المعنى الذي تؤديه كلمة"يسير" ويتناسب مع سياقها فيقول :معنى:﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مُتَيسَّرٌ لنا إذا تسببنا إلى ذلك باستصحاب أخينا، واليسير شائع الاستعمال، فيما يسهل من الأمور،كالعسير فيما يتعذّر منها، ولذلك قيل يُسِّرَ الرجل ،إذا

([1]) يوسف/٦٥.

نُتِجَت مواشيه، وكثر عياله. قال الشّاعر:

يَعُدُّ الفتى من نفسه كُلَّ ليلةٍ أصاب غناها مِن صديقٍ مُيَسر

وقال آخر:

هما سَيِّدانا يزعمان وإنّما يسوداننا أَنْ يَسَّرتْ غنماهُما

وقد قيل في ذلك: كيلٌ يسير، أي سريع لا حبس فيه، وذلك أنّ القوم كانوا يُحْبَسُون على الباب، وكان يوسف يُقدّمهم على غيرهم؛ وقيل إنّ معنى الكيل هنا السِّعر.أخبرني أبو عمر عن أبي العباس قال: والكيل بمعنى السِّعر، كيف الكيل عندكم؟أي: كيف السِّعر؟ وقد أنشدنا عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه:

فإن تَكُ في كَيْلِ اليمامة عُسرةٌ فَمَا كيلُ مَيَّافَارِقين بأَعْسَرَا(١)

وهذا إدراكٌ جيدٌ من الخطابي، لمعانى الكلمة التي تُناسب سياقها.

ومن هذه المزاعم أيضاً ما قالوه في قوله تعالى:﴿

---

(١) ثلاث رسائل ص٤٢.

وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [1]؛ إذ زعموا أنّ المشي في هذا ليس بأبلغ الكلام، ولو قيل بدل ذلك، أنْ امضوا وانطلقوا، لكان أبلغ وأحسن"؛ وذلك – حسب ظنهم– لأنّ كلمة امضوا أو انطلقوا، فيها قدر من السرعة، والحركة الزائدة عن الإلف، ووراء ذلك شيء من الاهتمام أو الفزع، وهذا يناسب انطلاقهم.

ويجيب الخطابي بأنّ التعبير بالمشي في هذا المقام أنسب من قولهم :امضوا وانطلقوا؛ وذلك لأنّ المشي ليس فيه خروج عن المألوف ، بل يُوحي بالاستمرار على العادة الجارية، ولزوم السجية المعهودة ، في غير انزعاج منهم، ولا انتقال عن المعنى الأول، أمّا كلمة امضوا وانطلقوا، ففيها زيادة انزعاج، ليست في قوله "امشوا" ، والقوم يريدون في تواصيهم حال انطلاقهم، أن يستمروا على ما ألفوه من عبادة آلهتهم ، من غير انزعاج واهتمام، بهذا الذي يدعو إليه من جعل الآلهة إلهاً واحداً ، ولهذا كانت كلمة "امشوا" أولى؛ لأنّها أنسب بحالهم ،كما أنّها تُلائم الثّبات، والصّبر المأمور به في قوله:﴿ وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾؛إذ الصّبر يُنافي الانزعاج المتلبس بكلمة"انطلقوا "أو امضوا.وقيل:بل المشي هاهنا معناه

([1]) ص/٦

التّوفر في العدد، والاجتماع للنّصرة دون المشي، الذي هو نقل الأقدام ... [1]

بهذا الفهم الدقيق علّل الخطابي لدقة الاستعمال القرآني

.ومن هذه المزاعم ما قالوه في قوله تعالى:﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ﴾ [2] **؛ زعموا أنّ لفظ الهلاك، إنّما يُستعمل في الأعيان والأشخاص، كقوله:هلك زيد، وهلك مال عمرو ونحوهما، فأمّا الأمور التي هي معان، وليست بأعيان ولا أشخاص، فلا يكادون يستعملونه فيها، ولو قال قائل: هلك عن فلان علمه، أو هلك جاهه، على معنى ذهب علمه وجاهه، لكان مستقبحاً غير مستحسن"**

وأجاب الخطابي عن هذا الزّعم الباطل، إجابةً تكشف المعنى الخاص، الذي تُؤديه كلمةُ هلك، ولا تُؤديه كلمة ذهب، وهو يُناسب نبرة التّحسر، الذي يفيض بها هذا القول المكروب ، فقال: "إنّهم ما زادوا على أن عابوا أفصح الكلام وأبلغه، وذلك أنّ الذّهاب قد يكون على مراصد العود، وليس مع الهلاك بَقْيًا ولا رجعى"[3] **،كما ذكر وجهين آخرين يؤكدان بلاغة**

---

(1) ثلاث رسائل ص ٤٣.

(2) الحاقة/٢٩.

(3) ثلاث رسائل ص ٤٤.

التعبير القرآني وهما أن هذا من باب تصوير المعقول في صورة المحسوس، أو أن المراد بالسلطان البرهان والدليل.

إلى آخر هذه الشّبه التي ذكرها الطّاعنون على القرآن و قد ردّ الخطابي عليها بردودٍ قويةٍ، استطاع أن يُثبت من خلالها، أنّ القرآن الكريم ليس به كلمةٌ واحدةٌ غير فصيحة، وبهذا يكون أبو سليمان قد أثبت استواء البيان القرآني؛ فالقرآن عنده مستوٍ في فصاحته، ليس به تفاوتٌ وتفاضلٌ، لا في درجات الفصاحة- أي ليس به الفصيح والأفصح- ولا في أصلها- أي ليس فيه الفصيح وغير الفصيح-.

٢- الباقلاني (٤٠٢هـ)

وجاء أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني في كتابه" إعجاز القرآن" - الذي هو أعظم كتابٍ أُلّف في الإعجاز القرآني إلى اليوم- وقد عُني فيه من أوله إلى آخره، بفكرة استواء بلاغة القرآن، على كلّ المستويات، ومع كُلّ الأسباب، وعدّ هذا الاستواء وجهاً من وجوه البلاغة المعجزة، يُباين فيه البيانُ القرآني البيانَ البشري، الذي يتّصف بالتّفاوت والاختلاف.

وهو في سبيل الوصول إلى هذه الفكرة، يجعل البيان البشري مقدمة لها ودليلاً عليها؛ لأنّنا لن نفهم البيان القرآني

إلا إذا فهمنا البيان البشري، ولن يتجلّى لنا استواء البيان القرآني، إلا إذا وضعنا أيدينا على تفاوت البيان البشريّ، وهذا منهجٌ دقيقٌ، قد سار عليه "الباقلاني" في كتابه من أوله إلى آخره.

فهو يذكر كُلّ الأسباب والطّرق التي من شأنها أن تؤدي إلى التّفاوُتِ، ويوازن بين القرآن و كلام البشر على أساسها، ويبيّن استواء القرآن وتفاوُتَ كلام البشر.وهو لا يلقي كلامه مجرداً من الأمثلة، وإنّما يأتي بأمثلة من القرآن، ومن كلام فصحاء العرب؛ ليدلّل على صدق ما يقول، وتراه يدعو المتلقي إلى معرفة ما يلقيه عليه بنفسه، ويتودّد له، ويتعطف عليه ويدعو له بالتوفيق.

و يكفي – في إظهار رأيه – أن نشير إلى صنيعه في الفصل الثالث من كتابه؛ إذ تحدّث عن جملة وجوه إعجاز القرآن ، وقد ذكر في "الوجه الثّالث:" أنّه بديع النّظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة، إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه" ثم قال:" والذي أطلقه العلماء– في هذا الوجه– هو على هذه الجملة" ، أما هو فقد وعد بالتّفصيل فقال:"ونحن نُفصّل ذلك بعض التّفصيل ونكشف الجملة التي أطلقوها"،" فالذي

يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه..." [1] وبدأ يُعَدِّدُ هذه الوجوهَ ويُوضّحها، وقد أوصلها إلى عشرة، وممّا ذكر وله علاقةٌ بقضية البحث أجمله في خمسة أمورٍ، هي:

- **استواء بلاغة القرآن على امتداده وطوله.**
- **استواء بلاغة القرآن في كلّ المعاني التي يتصرّف فيها ويُكرّرها.**
- **استواء بلاغة القرآن مع التنوّع والاختلاف والتنقّل.**
- **استواء بلاغة القرآن واطّرادها مع جدة المعاني وطرافتها.**
- **استواء بلاغة القرآن في بيانه على ضربٍ واحدٍ.**

وبهذا يكون الباقلاني قد أكّد على استواء البيان القرآني على كُلّ الأسباب التي من شأنها أن تؤدي إلى التّفاوُتِ،كما أكّد مباينة هذا الأسلوب للبيان البشري في أرقى مستوياته وعند أمرائه. [2]

([1]) راجع: إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق السيد أحمد صقر ط دار المعارف ط خامسة ص٣٥ وما بعدها.

([2]) سبق لي الوقوف مع الباقلاني في بحث سابق.

٣- الرّافعي(ت ١٣٥٦هـ= ١٩٣٧م)

و في العصر الحديث جاء الأديب مصطفى صادق الرّافعي، وكانت هذه القضية – أيضاً- حاضرة في ذهنه؛ ولذا فقد حاول أن يُؤكّد القول باستواء البياني القرآني ، في أكثر من موضع، وعلى أكثر من مستوى، ويمكن لنا أنّ نتلمّس حديث الرجل، عن هذه القضية في حديثه عن عدة أمور: هي:

١- قوّة لغة القرآن وبلاغته

بيّن الرّافعي- عليه رحمة الله- في أوّل حديثه عن القرآن الكريم- ممّا يتصل بلغته وبلاغته، ويكشف عن أوجه الإعجاز في ذلك- قوة لغة القرآن الكريم، وقوة بلاغته ، واستواءَه في ذلك، من أوله إلى آخره، تأمّل قوله:"...ولقد أراد الله أن لّا تضعُف قوّة هذا الكتاب، وأن لّا يكون في أمره على تقادم الزّمن خضع أو تطامن، فجاءت هذه القوّة فيه بأسبابها المختلفة على مقدار ما أراد، وهي قوّة الخلود الأرضي، التي خرج بها القرآن مخرج الشّذوذ الطبيعي، فلا سبيل عليه ليد الزمن وحوادثه، مما تُبْليه أو تستجدّه، إنّما هو روحٌ من أمر الله تعالى، هو نزّله، وهو يحفظه، وقد قال سبحانه:﴿ إِنَّا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾" [1]

فلغة القرآن- وكذا بلاغته- قويةٌ؛ ليس بها ضعفٌ أو هبوطٌ من أوّل القرآن إلى آخره، وقد جاءت هذه القوة بأسبابها المختلفة، وكانت سراً من أسرار حفظه.

والرّافعي بهذا الكلام يفتح عيوننا ويضع أيدينا على سرٍّ، من أسرار استواء القرآن في لغته وبلاغته وإعجازه، وهو حفظه وخلوده.

٢- استمرار إعجاز القرآن واستواؤه

ثم ذكر الرّافعي أنّ في القرآن مظهراً غريباً وأمراً عجيباً، وهو استمرار إعجازه من أوّله إلى آخره، ومن المسلم به أنّ الإعجاز والبلاغة قد تشابكا عند البلاغيين ؛ ومن ثم فإنّ الرّافعي حينما يقول: استمرار إعجازه، فهو يعني استمرار بلاغته؛ لأنه يؤمن بأنّ إعجازه في بلاغته، واسمع إلى الرّجل وهو يقول بنفسه:" وفي القرآن مظهرٌ غريبٌ؛ لإعجازه المستمر، لا يحتاج في تعرُّفه إلى رويةٍ ولا إعناتٍ، وما هو إلا أنْ يراه من اعترض شيئاً من أساليب النّاس؛ حتى يقع في نفسه معنى إعجازه؛ لأنّه أمرٌ يغلب على الطّبع وينفرد به؛

([1]) إعجاز القرآن ص٢٨ والآية رقم ٩ من سورة الحجر.

فيبينُ عن نفسه بنفسه،كالصّوت المُطْرب البالغ في التّطريب:لا يحتاج امرؤ في معرفته وتمييزه، إلى أكثر من سماعه"[1]

فهذا الإعجاز المستمر لا يحتاج في إدراكه إلى روية أو إمعان نظر، ولكنّه يهجم عليك، ويقع في نفسك، ويستولي عليك فور استماعك لشيءٍ من القرآن.

وذكر الرافعي – رحمه الله- دليلاً على استواء البيان القرآني، وهو قوله : "ولو أنّ هذا القرآن غير فصيح، أو أنّ فصاحته غير معجزة في أساليبها التي أُلقيت إليهم، لما نال منهم على الدهر منالاً، ولخلا منه موضعه الذي هو فيه، ثم لكانت سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص، وهو لم يخرج عن كونه في الجملة كأنّه موجودٌ فيهم بأكثر معانيه، قبل أن يُوجد بألفاظه وأساليبه، ثم لنقضوه كلمةً كلمةً، وآيةً آيةً، دون أن تتخاذل أرواحهم، أو تتراجع طباعهم، ولكان لهم وله شأنٌ غير ما عُرف؛ ولكنّ الله بالغ أمره، وكان الله قدراً مقدوراً". [2]

فالقرآن لو لم يكن فصيحاً، أو كانت فصاحته غير معجزة، لما نال هذه المكانة، ولكان للعرب معه شأنٌ آخر.

([1]) إعجاز القرآن للرافعي ١٦٦ .

([2]) المرجع نفسه ص ١٣٤.

٣- أسلوب القرآن يُباين أسلوب البشر

ثم بيّن الرّافعي – وقد أفاد في ذلك من الخطابي و الباقلاني – أن أسلوب القرآن مباينٌ لأسلوب البلغاء من البشر، في ترتيب خطابهم، وتنزيل كلامهم، وعلى أنّه يُؤاتي بعضه بعضاً، وتُناسب كلُّ آيةٍ منه كُلَّ آيةٍ أخرى في النّظم والطّريقة على اختلاف المعاني، وتباين الأغراض، سواء في ذلك ماكان مبتدأ به من معانيه وأخباره، وما كان متكرراً فيه؛ فكأنّه قطعةٌ واحدةٌ على خلاف ما أنت واجده في كلام كلّ بليغ، من التّفاوت باختلاف الوجوه التي يُصرفه إليها، والعلو في موضع، والنزول في موضع، ثم ما يكون من فترة الطّبع، ومسحةِ النّفس، في جهة بعث عليها المَلَل، أو جهة استُؤنف لها النّشاط، ثمّ ما لابدّ منه، من الإجادة في بعض الأغراض، والتّقصير في بعضها، مما يختلف البلغاءُ في علمه والإحاطة به، أو التّأتّي له والانطباع عليه؛ وهذا كلُّه معروفٌ متظاهرٌ في النّاس، لا يمتري فيه أحد.

وليس من شيءٍ في أسلوب القرآن ويغضُّ من موضعه، أو يذهب بطريقته أو يُدخله في شَبَهٍ من كلام النّاس، أو يردُّه إلى طبع معروفٍ من طباع البلغاء، وما من عالمٍ أو بليغ إلا وهو يعرف ذلك، ويعدُّ خروج القرآن من أساليب النّاس كافةً دليلاً على إعجازه، وعلى أنّه ليس من كلام إنسانٍ، بيد

أنّنا لم نرَ أحداً كشف عن سرّ هذا المعنى، ولا ألَمّ بحقيقته، ولا أوضح الوجه الذي من أجله خالف أسلوب القرآن، كلّ ما عُرف من أساليب النّاس، ولم يُشْبه واحداً منها"[1]

فالرّافعي- رحمه الله وأثابه- قد بيّن أنّ أسلوب القرآن مباينٌ لأسلوب البلغاء من البشر في النّظم والطّريقة؛ فكلام الله كأنّه قطعةٌ واحدةٌ، وكلام البلغاء من البشر متفاوتٌ مختلفٌ، يعلو في موضع، وينزل في موضع، ويجود في بعض الأغراض ويقصر في بعضها، وما يشذ عن ذلك الأمر أحدٌ من النّاس.

وفي مباينة أسلوب القرآن لأساليب النّاس دليلٌ على ألوهية مُنْزِلِه- سبحانه وتعالى- كما أنّ فيه دليلاً على إعجازه.

وقد ذكر الرّافعي أنّه لم يرَ أحداً كشف عن سرّ هذا الاختلاف، بين كلام الله سبحانه وكلام البشر، ولا ألَمّ بحقيقته، ولا أوضح الوجه الذي من أجله خالف أسلوب القرآن، ومن ثمّ راح الرّافعي يحاول أن يُبيّن السّر في تفاوت البيان البشري ، وقد أرجعه إلى اختلاف المزاج الإنساني، وتركيب الكلام يتبع تركيب المزاج.

([1])االمرجع نفسه ص١٦٦.

فقال – رحمه الله– :"ومن هنا فإنّه يتضح لنا أنّ القرآن الكريم إنّما ينفرد بأسلوبه؛ لأنّه ليس وضعاً إنسانياً ألبتة، و لو كان من وضع إنسانٍ لجاء على طريقةٍ تُشْبِه أسلوباً من أساليب العرب، أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد، ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بدّ في طريقته ونسقه ومعانيه﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [1]،ولقد أحسّ العرب بهذا المعنى واستيقنه بلغاؤهم، ولولاه ما أفحموا ولا انقطعوا من دونه؛ لأنّهم رأوا جنساً من الكلام غير ما تُؤديه طباعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة ؟! [2]

فالأسلوب القرآني – على اختلاف أغراضه وتنوع معانيه– واحدٌ، والسّبب في ذلك، أنّه ليس عن طبع إنساني، فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه؛ لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها؛ ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً، فهو أمرٌ فوق الطّبيعة الإنسانية، وفوق ما يتسبّب إليه الإنسان؛ إذ هو يُشْبِه الخلق الحي تمام المشابهة، وما أنزله إلا الذي يعلم "السِّرَّ في

([1]) النساء/٨٢.

([2]) إعجاز القرآن ص ١٦٨.

السموات والأرض". [1]

على أنّ هذا السّر الذي كشفه الرافعي، قد تحدّث عنه الغزالي من قبله عند تفسير قوله تعالى:﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [2]

٤- بلاغة الآيات التي تُبنَى على السّرد

وقد وقف الرافعي مع نمطٍ من الآيات يبنى على السرد والنسق ، ذكر عنه بعض العلماء- كابن حزم وغيره- أنه دون غيره في البلاغة؛ فذكر أنّ القرآن الكريم، لا يشذُّ في كلمةٍ واحدةٍ، عن قاعدة نظمه المعجز، "حتى إنّك لو تدبّرت الآيات، التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة، وهي بالطبع مَظِنّة أن لا يكون فيها شيءٌ من دلائل الإعجاز؛ فإنّك ترى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه؛ لنظم حروفه ومكانه من النّطق في الجملة، أو لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية؛ بحيث يُوجد شيئاً فيما ليس فيه شيء.

تأمّل قوله تعالى:﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ

([1]) إعجاز القرآن ص ١٧٤.

([2]) النساء/٨٢.

وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ [1] فإنها خمسة أسماء، أخفها في اللّفظ(الطُّوفان والجَرَاد والدَّم) وأثقلها(القُمَّل والضَّفادع) فقدّم (الطُّوفان) لمكان المَدَّيْن فيها؛ حتى يأنس اللّسان بخفتها؛ ثم الجَرَاد وفيها كذلك مدّ؛ ثم جاء باللّفظين الشَّديدين، مبتدئاً بأخفهما في اللّسان وأبعدهما في الصّوت؛ لمكان تلك الغُنّة فيه؛ ثم جِيء بلفظة (الدَّم)آخراً، وهي أخفّ الخمسة وأقلُّها حروفاً؛ ليُسرع اللّسان فيها، ويستقيم لها ذوق النّظم، ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب.

وأنت فمهما قلّبت هذه الأسماء الخمسة، فإنّك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع؛ لو قدَّمت أو أخَّرت لبادرك التّهافت والتَّعثّر، ولأعنتكَ أن تجيء منها بنظمٍ فصيح، ثم لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة وقطعَكَ دون غايتها.ثم لخرَجتِ الأسماء في اضطراب النّطق على ذلك بالسّواء؛ ليس يظهر أخفّها من أثقلها؛ فانظر كيف يكون الإعجاز فيها ليس فيه إعجاز بطبيعته.

وبهذا الذي قدمنا ونحوه ممّا أمسكنا عنه، ولم نستقص في أمثلته؛ لأنّه أمرٌ مُطرد- تعرف أنّ القرآن إنمّا أعجز في اللغة بطريقة النّظم، وهيئة الوضع، ولن تستويَ هذه الطريقة

([1]) الأعراف/١٣٣.

إلا بكلّ ما فيه على جهته ووضعه، فكلّ كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه..."[1].

فالرّافعي يرى بأنّ القرآن لا تشذ فيه كلمة واحدة، عن قاعدة نظمه المعجز، وحاول أن يؤكد ذلك ؛ فردّ على بعض العلماء – منهم ابن حزم– الذين يرون أنّ الآيات التي تُبنى على سرد الأسماء الجامدة، تكون أقل بلاغة من الآيات الأخرى، وقد كشف عن إعجازها وبلاغتها.

٥- القرآن على مدرجةٍ واحدةٍ من الكمال

وأخيراً أكّد الرّافعي على أنّ القرآن الكريم، على مدرجةٍ واحدةٍ من الكمال، وبيّن أنّ هذا لا يُعرف في كلامٍ عربي قطّ غير القرآن ، ثم ذكر أنّه لا ينتقص منه شيئاً إلا كاذبٌ أو جاهل أحمق، كما لا يشك في ذلك أيضاً إلا عامي أو أعجمي، وأرى أن أنقل كلام الرجل بنصه هنا ؛ لأنّ أيّ تدخل سيفسد كلامه، يقول رحمه الله:

"وبعد فأنت مادمت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال، وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التّركيب، وموضع التّأليف، وألوان التّصوير، وأغراض

([1]) إعجاز القرآن ص ١٩٢.

الكلام... وذلك أمرٌ متحققٌ بعد في القرآن الكريم:يقرأ الإنسان طائفةً من آياته، فلا يلبث أن يعرف لها صفة من الحسّ، تُرافد ما بعدها وتمدُّه، فلا تزال هذه الصّفة في لسانه، ولو استوعب القرآن كلّه، حتى لا يرى آيةً قد أدخلت الضيمَ على أختها، أو نكَّرت منها، أو أبرزتها عن ظلٍّ هي فيه، أو دفعتها عن ماءٍ هي إليه، ولا يرى ذلك كلّه إلا سواءً وغايةً في الرُّوح والنَّظم والصفة الحسيّة، لا يغتمص في هذا إلا كاذبٌ على دِخلةٍ ونيّةٍ، ولا يُهجّن منه إلا أحمق على جهل وغرارة، ولا يمتري فيه بعد هذين إلا عاميٌّ أو أعجميٌّ...وكذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون.

إنّ طريقة نظم القرآن تجري على استواءٍ واحدٍ في تركيب الحروف باعتبارٍ من أصواتها ومخارجها، وفي التّمكين للمعنى بحسّ الكلمة وصفتها، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام، وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته، على حسب مواقع الكلمات، لا يتفاوت ذلك ولا يختلّ، فمن أين يدخل على قارئه ما يَكد لسانه، أو ينبو بسمعه؛ أو يفسد عليه إصغاءه، أو يرده عمّا هو منه بسبيله؛ أو يتقسم إحساسه ويتوزّع فكره؛ أو يورده الموارد من ذلك كلّه أو بعضه؛ إلا أن يكون هذا القارئ رَيِّضاً لم تفلح فيه رياضة البلاغة؛ ولا أجدي عليه التّمرين والدُّرْبة؛ فخرج ألفَ اللسان بليدَ الحسّ متراجع الطّبع،لم يبلغ مبلغ الصّبيان في إحساس الغريزة وصفاء هذه

الحاسة واطّراد هذا الصّقاء"[1]

ومن خلال هذا الكلام يتضح لنا أنّ الرّافعي يذهب إلى استواء البيان القرآني في بلاغته وفصاحته،"هذا على أنّ فيه من المعاني الكثيرة والأغراض الوافرة، مما لو كان في كلام النّاس لظهر عليه صبغ النّفس الإنسانية لا محالة، بأوضح معانيه وأظهر ألوانه؛ وبصفاتٍ كثيرةٍ من أحوال النّفس"[2] ، كما يتضح لنا أنّه أفاد في كثير مما جاء به من الباقلاني.

٤- الدُّكتور محمد عبد الله دراز(ت١٣٧٧هـ= ١٩٥٧م)

وجاء العلّامة الشّيخ محمد عبد الله دراز في كتابه "النّبأ العظيم" ، وتعرّض لقضية استواء البيان القرآني مرّتين: مرةً عند حديثه عن خصائص القرآن البيانيّة على مستوى السُّورة.ومرةً عند حديثه عن خصائص القرآن في جملته.

وقد أكّد في كلّ كلامه، على وحدة نظام البيان القرآني واستوائه، وذكر أنّه لا يشذُّ عن هذا النّظام حرفٌ واحدٌ في القرآن الكريم، ونحاول أنّ نقف مع الرّجل في الموضعين؛

---

(١) إعجاز القرآن ص ١٩٨.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧٠.

لنبيّن موقفه من هذه القضية؛ولنُغْريَ القارئ بمراجعة كتاب" النبأ العظيم"؛ فهو من أفضل الكتب التي تناولت قضية الإعجاز في العصر الحديث، إن لمّ يكن أفضلها.

١- الكثرة والوحدة

وصف الشّيخ دراز النّظام المعنوي في القرآن على مستوى السّورة بـــ "الكثرة والوحدة"،وهو يعني بالكثرة ،كثرة المعاني وبالوحدة تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنّها لتنتظم منها وحدةٌ محكمةٌ لا انفصام لها.

وبيّن أنّ الكلام في الشّأن الواحد، إذا ساء نظمه، انحلّت وحدةُ معناه؛ فتفرّق من أجزائها ما كان مجتمعاً، وانفصل ماكان متصلاً،كما تتبدَّد الصُّورة على المرآة، إذا لم يكن سطحُهَا مستوياً، والكلام – في نظر الشيخ- مرآة المعنى؛ فلابد إذاً لإبراز تلك الوحدة الطّبيعية" المعنوية" من إحكام هذه الوحدة الفنية" البيانية".وذلك بتمام التّقريب بين أجزاء البيان، والتّأليف بين عناصره؛ حتى تتماسك وتتعانق، أشدّ التّماسك والتّعانق.

وذكر الشّيخ-رفع الله ذكره- أنّ هذه الوحدة البيانيّة، ليست أمراً هيناً، كما يظنُّه الجاهل بصناعة البيان، ولكنها

مطلبٌ كبيرٌ عزيزٌ، يحتاج إلى مهارةٍ وحذق، ولطف حسٍ في اختيار أحسن المواقع لأجزاء البيان،كما يحتاج إلى مثل ذلك في اختيار أحسن الطّرق لمزجها.

وهذا حال المعنى الواحد، الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالاً طبيعياً، وأمّا إذا كانت المعاني مختلفة في جوهرها، منفصلة بطبيعتها، فإنّها تحتاج إلى مهارة أكثر، وحذق يتطلّبه التأليف بين أمزجتها الغريبة واتجاهاتها المتشعّبة؛ حتى يكون لها مزاجٌ واحدٌ واتجاهٌ واحدٌ.

ومن أجل عزّة هذا المطلب، نرى البلغاء وإنْ أحسنوا وأجادوا، إلى حدٍّ ما في غرضٍ واحدٍ، كان منهم الخطأ والإساءة في نظم الأغراض المتعددة؛ فالشّعراء حينما يجيئون في القصيدة الواحدة بمعان عدةأكثر ما يجيئون بها أشتاتاً، لا يرتبط بعضها ببعض، وقليلاً ما يهتدون إلى حسن التّخلُّص من الغرض إلى الغرض، كما في الانتقال من النَّسيب إلى المدح.والكُتَّاب كذلك تجد في كتاباتهم ثغرات، وربما استعانوا على سدّ تلك الثّغرات، باستعمال أدوات التّنبيه ، أو الحديث عن النّفس.

وهذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس الواحد، فكيف لو جِيء بها في ظروف مختلفة وأزمان متطاولة؟ ألا تكون الصلةُ فيها أشدَّ انقطاعًا، والهوّةُ

بينها أعظمَ اتساعاً؟!!

لكنّك حينما تنظر إلى النّظام البياني في القرآن الكريم تراه-على الرّغم من كثرة الموضوعات وتفاوت الظُّروف- أدخل في الإعجاب وألصق بالإعجاز.

وقد بيّن الشيخ دراز الأسباب التي اجتمعت على القرآن، وكان من شأنها أن تجعل نظمه مفككاً، ومعانيه متباينة، وأجزاءه متنافرةً، وهي:

١- عناصر معنوية مختلفة.
٢- ظروف زمانية منفصلة.
٣- أوضاع تأليفية عجلى ومشتة. [١]

فهذه الأسباب الثّلاثة، كان من شأنها أن تزيد نظم السّورة تفكيكاً، ووحدتها تمزيقاً؛ بحيث لا يستقيم بها للكلام طبعٌ، ولا يلتئم له معها شملٌ. لكن هذه الأسباب على تضافرها وتعاونها لم تستطع أن تنال من استقامة النّظم، في السّورة القرآنية شيئاً؛ إذ وجدنا الأسلوب القرآني على العكس من ذلك تماماً. وجدناه لا يضطرب ولا يتعثَّر، بل يحتفظ بتلك الطّبقة العليا من متانة النّظم، وجودة السّبك؛ حتى يصوغ من هذه

---

(١) النبأ العظيم ط دار القلم بالكويت. ص ١٤٢ومابعدها

الأفانين الكثيرة منظراً مؤتلفًا، وأيّ امرئ يحسن العربية، وينظر في نظم القرآن هذه النّظرة، ثم لا يرى فيه من أثر القدرة الباهرة سرًّا من أسرار التّحدي والإعجاز؟!![1] وهذا السّر سمّاه شيخنا بالوحدة ، وهو يعني به وحدة النّظام البياني، الذي يتبع وحدة النّظام المعنوي، واعتبره شيخنا دليلاً على أنّ هذا النّظم القرآني، ليس من وضع بشر، وإنمّا هو من صنع العليم الخبير﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [2]. وذكر الشيخ نموذجاً من القرآن يتجلّى فيه كلّ ما ذكره، وهي سورة البقرة التي هي أطول سور القرآن كافة، وهي أكثرها جمعاً للمعاني المختلفة، وهي أكثرها في التّنزيل نجوماً، وهي أبعدها في هذا التنجيم تراخياً.

٢- الإعجاز والاستواء

ووصف الشّيخ دراز القرآن في جملته بالإعجاز والاستواء، ويعني بالإعجاز أنّ القرآن كلّه من أوله إلى آخره، معجزٌ في نفسه، معجزٌ في وصفه، معجزٌ في أسلوبه، تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلّها، على تباعد ما بين أطرافها، ويطلب الشّيخ من المتلقّي أن يضع يده، على أيّ مكانٍ شاء منه،

---

(١) النبأ العظيم هامش ص ١٤٤وراجع: البلاغة القرآنية في النبأ العظيم للباحث .مطبعة "المتحدون للطباعة بالزقازيق" ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م ص ١١٦.

(٢) النساء/٨٢.

ويتأمّل فيه؛ ليجدَ من أسباب الإعجاز، ما يملأ قلبه يقيناً بهذه الحقيقة.

ويعني الشّيخ بالاستواء أنّ القرآن من أوّله إلى آخره، مستوٍ في الإجادة البيانية، فما يشذُّ فيه حرفٌ واحدٌ، عن قاعدة نظمه المعجز، وإنّما هو على درجةٍ واحدةٍ من الإجادة والإبداع، من أيّ النّواحي أتيته وجدته في القمة، وإنْ شئتَ فقُلْ في قمة الإعجاز، وهيهات أن تُصيب لأحدٍ من بلغاء النّاس، كلاماً على درجةٍ واحدةٍ، بل وهيهات أن تجد في النّاس، من تتهيَّأ له أسباب الإجادة البيانية على درجةٍ سواءٍ في رَغْبه، ورَهْبه ، وبُؤْسِه ، وطرَبِه، وعِتَابه واعْتِذَاره، وعَفْوه، وانْتِقامه، وجَدَلِه ومُفَاخَرَتِه ، ووَصْفِه ، وقصَصِه، وغير ذلك من ضروب القول وأفانينه، فلكلّ بليغ مجالٌ يَبرز فيه؛ بقدر ما يُواتيه طبعه، وثمرة فطرته ومزاجه ، وقديماً قيل: أشعر النّاس النّابغة إذا رَغِب، والأعشى إذا شَرِب، وامرؤ القيس إذا طرب، وعمرو بن كلثوم إذا غَضِب". ومن النّاقدين من يقول: امرؤ القيس إذا رَكِب، والنّابغة إذا رَهِب، وزهير إذا رَغِب .

على أنّه في ذلك المجال نفسه يتفاوت أسلوب البليغ؛ فيعلو ثم ينزل، ويكتنز ثم يتخلخل، كلَّما تفاوتت رغبته شدة وضعفاً، أو تفاوتت قوته استجماماً وإعياءً، أو تفاوتت المعاني في نفسه جلاءً وغموضاً، ومن ثم هيهات أن تجد في النّاس،

من تُهيَّأ له أسباب الإجادة، في المعنى الواحد شعراً ونثراً، وإرسالاً وسجعاً، وحقيقة ومجازاً، وإطناباً و إيجازاً، وتصريحاً و تلميحاً[1].

ومن هذا الكلام يتضح لنا، أنّ الشيخ دراز يؤمن باستواء البيان القرآني، وذلك لأنّ الاستواء دليلٌ على ربانيّة القرآن وإعجازه، كما يتّضح لنا أنّه متأثرٌ بما ذكره الباقلاني والرّافعي، وإن كان للشيخ دراز ما يُميّزه، ويجعله طرازاً فريداً.

٥- الأستاذ عبد الكريم الخطيب

ويذهب الأستاذ عبد الكريم الخطيب، في كتابه "إعجاز القرآن"، إلى استواء البيان القرآني، وقد تجلَّى ذلك من قوله عند وقوفه مع قوله تعالى﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾ [2]: "وقد تحدّث العلماء عن وجوه هذا الاختلاف، التي كانت تقع في القرآن، لو أنّه كان من قول بشر...ومن هذه الوجوه اضطّرابُ النّظم، وتفاوت الأسلوب.فلا يكون على وجهٍ واحدٍ، ولا على درجةٍ واحدةٍ، في إحكام النّظم، وعلو الأسلوب... أمَا وقد جاء القرآن

([1])حصاد قلم ص٢١ بتصرف.وراجع: البلاغة القرآنية في النبأ العظيم للدكتور سعيد الهلالي ص ١٤٢.

([2]) النساء/٨٢.

على حالٍ سواء في إحكام نظمه، وروعة بيانه، وعلوّ أسلوبه، مع هذا الامتداد الطّويل فيه، وفي أزمان نزوله وأحواله- فإنّ ذلك دليلٌ على أنّه ليس لبشرٍ إليه سبيلٌ، وأنّه تنزيلٌ من ربّ العالمين" [1]

فالقرآن عنده مستوٍ في بيانه، على الرّغم من وجود الأسباب التي تؤدي إلى التّفاوُتِ والاختلاف كطوله، وامتداد أزمان نزوله، وأحواله المختلفة،وهذا الاستواء دليلٌ على ألوهية منزله، وهو في هذا متأثرٌ بما ذكره الباقلاني والرّافعي ودراز.

٦- الدكتورة عائشة عبد الرحمن(بنت الشاطئ)

و الدكتورة عائشة عبد الرّحمن لا تُسلّم للقول بتفاضل البيان القرآني وتفاوته، ويتجلّى لنا موقفها من كلامها، عند وقوفها مع الإمام الخطابي؛ حيث ذكرت أنّ الخطابي يرى أنّ من الإعجاز أن تأتي بلاغات القرآن جامعةً لطبقات ثلاث، متفاوتةً من حيث المستوى، بعد استبعاد الهجين المذموم . [2]

وقد عقّبت على كلام الخطّابي بقولها:والعبارة موهمةٌ، قد يُفهم منها أنّ في القرآن ما هو من الدّرجة العليا في

([1]) إعجاز القرآن .ط دار الفكر العربي. ط أولى ١٣٨٣هـ= ١٩٦٤م. ص ٣٢٦.

([2]) بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ص ٢٦.

البلاغة، وفيه ما هو من أوسطها وأدناها.وذلك مردودٌ عندنا من ناحيتين:

أولاهما:أنّ فهمنا للإعجاز البياني، فوت لأعلى درجات البلاغة دون أوسطها وأدناها.

والأخرى:أنّ هذه الدرجات الثّلاث لا تجتمع، بالضرورة، في السّورة الواحدة، وبسورةٍ واحدةٍ كان التّحدي والمعاجزة".[1]

فبنت الشاطئ- رحمها الله- ترى أنّ كلام الخطابي، يُوهم بأنّ القرآن الكريم، فيه ما هو من الدّرجة العليا من البلاغة، وما هو من أوسطها، وما هو من أدناها؛ ومن ثمَ فهي تُبادر برفض هذا الفهم المُوهم، وتستدلُّ على ما ذهبت إليه بأمرين: الأوّل: أنّ فهمها للإعجاز البياني، يقتضي أن يكون القرآن في أعلى درجات البلاغة. الثّاني: أنّ هذه المراتب الثّلاث لا تجتمع بالضّرورة في السّورة الواحدة، وبسورةٍ واحدةٍ كان التّحدي والمعاجزة.

وأوافقها على أنّ كلام الخطابي ملبسٌ؛ لأنّه يتكلم عن البلاغة الخاصة بالقرآن، والتي ليس فيها شيءٌ من بلاغة

---

(1) الإعجاز البياني للقرآن للدكتورة عائشة عبد الرحمن .دار المعارف ط ثانية.١٤٠٤هـ=١٩٨٤م ص ١٠٢.

النّفس الإنسانية – لأنّها فوق طاقتها – وقد ذكر أنّ التّفاوت في البيان، وفي أقدار الكلام وصفٌ لازمٌ لبلاغة البشر.

ولو أنّ الخطابي ذكر أنّ هذا التّفاوت غير كائن في القرآن لكان أقرب إلى الكشف عن البلاغة الخاصة؛لأنّ التفاوت في كلام الناس خصوصيةٌ من خصائص نفوسهم، وحالٌ من أحوال بشريتهم، وهذه النّفوس تعتورها عوارض القوة والضّعف، والإحكام والاختلال، وذلك كائنٌ فيها لا محالة وفقدانه في القرآن دليل مغايرة طبعه لطبع كلام الناس، ومغايرة مخرجه لمخرج كلامهم.

ولكن الخطابي ذكر أنّ بلاغة القرآن حازت من كُلّ قسمٍ من هذه الأقسام حصةً، وأخذت من كلّ نوع من أنواعها شعبةً، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمطٌ من الكلام...إلى آخره.

و هذا الكلام ملتبسٌ ؛ لأنّه يجب أن يكون له معنىً واضحٌ، يكشف عن شيءٍ من البلاغة الخاصة بالقرآن؛ وهذا يقتضي البحث في هذا الكلام ، عن شيءٍ يلتئم على مراد الخطابي به، والذي أراه في فهم هذا النّص، أنّ الخطابي أراد أنّ هذه الأنماط الثّلاثة في كلام البشر، تأتي على الانفراد؛ لأنها نتاجُ أحوال نفسيّة مختلفة، لكنها في القرآن الكريم تمتزج بحيث يتدفّق منها كلامٌ ، تتداخل فيه هذه الأوصاف.

و ليس من طاقة النّفس البشرية، ولا ممّا يلائم فطرتها، أن تمتزج فيها هذه الأحوال، ومن ثمّ فإنّ اجتماع هذه الأوصاف في القرآن الكريم من الأمور الخارقة للعادة التي خُصّ بها القرآن، ويسرها الله له ليكون آية من آيات إعجازه.. (١)

وأعود إلى كلام بنت الشاطئ –عليها رحمة الله– لأوافقها على أنّ إعجاز القرآن البياني يقتضي أن يكون القرآن في قمة البلاغة، ولا أوافقها على ما ذكرته في الأمر الثّاني؛ لأنّها فهمته على غير الوجه الذي ذكرته سابقاً؛ لأنها ترى أن هذه الأوصاف تأتي في القرآن على الانفراد، لكنّها ترى أنها لا تأتي بالضرورة في السُّورة الواحدة، وبالسُّورة كان التّحدي.

٧–الدكتور سعد الدِّين صالح(٢)

وتعرض شيخنا الدكتور سعد الدِّين السّيد صالح– عليه رحمة الله– في كتابه:" المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم" لصور الإعجاز البياني في القرآن الكريم ، وانتهى إلى أنّ القرآن معجزٌ ببلاغته، وأنّ هذا الإعجاز مستمرٌ فيه من أوله إلى آخره، ثم ذكر أنّ العلماء بعد أنْ اتفقوا على أنّ القرآن في

---

(١) راجع: الإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى ص ٤٧– ٥٠.

(٢) العميد الأسبق لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق فرع جامعة الأزهر.

أعلى مراتب البلاغة ، اختلفوا في تفاوت درجات البلاغة فيه.

فذهب بعضهم ومنهم أبو نصر القُشَيْري والعزُّ بن عبد السلام، إلى أنّ هناك تفاوتاً في درجات البلاغة في القرآن، ففيه الأفصحُ والفصيحُ، وقارن بعضهم بين قول الله تعالى:﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [1]، وقوله:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ۞ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ۞ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [2]

وحجَّةُ هؤلاء: أنّه لو جاء القرآن كلّه في الدّرجة العليا، لكان على غير النّمط المعتاد في كلام العرب، من الجمع بين الأفصح والفصيح؛ فلا تتم الحجة في الإعجاز؛ لأنّهم سيقولون أتيتَ بما لا قدرة لنا على جنسه.

وذهب الجمهور إلى أنّ جميع القرآن ومجموعه في الدّرجة العليا من الفصاحة، وأما ما يتوهمه البعض من كون بعض الآيات أرقى بلاغةً من آيات أخرى، فذلك راجعٌ إلى درجة إحساس الإنسان نفسه، فبعض النّاس أشدّ إحساساً وإدراكاً لبلاغة بعض الآيات دون البعض، وليس معنى ذلك أنّ

---

(1) هود/٤٤ .

(2) الكافرون/١-٣.

البعض الذي لم يُدرك ناقصٌ في الدّرجة عن البعض الآخر، ذلك أنّ القرآن كلّه في أقصى درجات البلاغة، وهذا ما يُميّز القرآن عن أشعار العرب وآدابهم؛ فقد احتوت هذه الآداب على فنون كثيرة من البلاغة، ولكنّها تفاوتت علواً ونزولاً، ففي القصيدة الواحدة نجد أبياتاً بليغةً وأخرى أقلّ بلاغة، أما القرآن الكريم فقد جاء كلّه في الدّرجة العُليا من البلاغة والفصاحة، على اختلاف أغراضه ومقاصده من العقائد إلى السياسة والاقتصاد والاجتماع والحدود والجنايات، وكلّها أغراض لا تُساعد على الوصول إلى الدّرجة العليا.

ومع ذلك بلغ القرآن فيها أقصى درجات البلاغة والفصاحة؛ لدرجة أنّك لا تجد في اللغة العربية كلمةً واحدةً تحل محل الكلمة القرآنية بجمالها وجرسها، وما تعطيه من معنى ومناسبة لما قبلها وما بعدها.

لا فرق في ذلك بَيْن آيةٍ وآيةٍ، ولا بَيْن سورةٍ وسورةٍ؛ فقد انبهر العرب واندهشوا بقليل القرآن الذي نزل قبل أن يكتمل، وهذا دليلٌ قاطعٌ على أنّ كلّ آيةٍ فيه قد بلغت أرقى درجات البلاغة والفصاحة [1]

---

(1) المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم للدكتور سعد الدّين صالح ط دار المعارف ط ثانية ١٩٩٣م ص ٩٥.

فهذا هو كلام شيخنا الدّكتور سعد الدِّين عن القضية، ونلاحظ منه أنّه عرض الأمر على أنّه قضية، وقد عزا القول بالتّفاوت إلى بعض العلماء، وعزا القول بالرّفض إلى الجمهور، والحجّة التي ذكرها للقائلين بالتّفاوت، وهي:أنّ القرآن لو جاء كلّه في الطبقة العليا، لكان على غير النّمط المعهود في كلام العرب، هي كلام صدر الدين موهوب الجزري، الذي أجاب به عن سؤالٍ للعزّ بن عبد السلام قال فيه:لِمَ جاء القرآن بالفصيح والأفصح.

وما ذكره في تحليل مذهب الجمهور، قد أفاد فيه من الباقلاني، الذي ذكر أنّ قليل القرآن الكريم وكثيره في الطَّبقة العليا من البلاغة، على الرّغم من اختلاف أغراض الكلام فيه، وهو في هذا يباين البيان البشري، الذي يعلو حيناً ويهبط حيناً، ويجيد فيه صاحبه في غرض دون غرض.

ثم تعرض شيخنا لما يتوهمه بعض الناس، من أن بعض الآيات أرقى من بعض، وذكر أنّ هذا راجعٌ إلى إدراك النّاس وإحساسهم، وليس لتفاوت هذه الآيات، وقد أفاد في ذلك أيضاً من الباقلاني.

ثانياً:المفسرون:

وثنيّت بالمفسرين؛ لأنّهم تعاملوا مع القرآن الكريم عن قرب؛ ومن ثمّ فرأيهم له أهميته، ووزنه في القضية، وقد رأينا

في المبحث السّابق، أنّ قلةً منهم قالت بتفاضُل البيان القرآني، أمّا الجمهور فإنّه يذهب إلى استوائه، ونحاول هنا أنّ نقف مع أبرز المفسرين، الذين قالوا باستواء البيان القرآني؛ لنعرف حُجَجَهم وأدلتهم على ذلك.

١- الطّبري (ت٣١٠)

من خلال مراجعة ما كتبه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قدِير﴾[١]، ندرك من أوّل وهلةٍ أنّ الإمام الطبري – عليه رحمة الله– لا يؤمن بتفاضُلِ البيان القرآني وتفاوته، بل يرى استواءه،تأمّل قوله:" ...فتأويل الآية إذاً: ما نُغيّرْ من حكم آية فنُبدّله، أو نتركه فلا نُبدِّله، نأتِ بخير لكم – أيها المؤمنون– حُكماً منها، أو مثل حكمها في الخفّة والثّقل والأجر والثّواب....

<u>...وغيرُ جائز أن يكون من القرآن شيءٌ خيراً من شيءٍ؛ لأنّ جميعه كلام الله ولا يجوز في صفات الله تعالى ذكره أن يُقال بعضها أفضلُ من بعض، وبعضُها خيرٌ من بعض</u> "[٢]

---

(١) البقرة/١٠٦.

(٢) تفسير الطبري .دار الكتب العلمية بيروت لبنان ج ١ ص ٥٢٦.

فالطّبري فسّر قوله:" بخير" إما بالخفّة، وإما بكثرة الأجر والثّواب، وحمل قوله:" من آية" على أنّه من باب حذف المضاف، أي حكم آية، وعلّل لذلك بقوله: وغير جائز أن يكون من القرآن شيءٌ خيراً من شيءٍ" وهذا صريحٌ في نفي تفاوت البيان القرآني، وقلتُ البيان القرآني- على الرّغم من أنّ الإمام لم يُصرّح به- ؛ لأنّه المقصود من قوله "من آية" إذا لم يُحمل على أنّه من باب حذف المضاف، أضف إلى ذلك أنّ الطبري أجاز التّفاوُتَ في باب الأجر والثواب .

وقد علّل الطبري لعدم تفاضل بيان القرآن بقوله:"لأنّ جميعه كلام الله" وهذه العبارة – على وجازتها- من العبارات السّمحة، ذات الدلالات التّرية، فكأنه يقول من خلالها: كيف يتفاوت البيان القرآني؛ فيعلو حيناً ويهبط آخر، وتفاوت بيان المتكلم ناتج عن اختلاف مزاجه، فهو دليل على البشرية؟!!كما أنّ التفاوت يدل على العجز، والقرآن منزهٌ عن ذلك؛ لأنّه معجز، و لأنّه كلام الله ، والله مُنزَّهٌ عن العجز، فهو يعلم الأحوال كُلّها خَفيَّها وجَليَّها، ويعلم مقتضيات هذه الأحوال ، ومن ثم فهو يضع كلّ حرف منه، في مكانه اللائق به. ولم يقف الطّبري عند هذا الحد، وإنما أكّده بأنْ أضاف إليه نفيَ التّفاوُتِ في صفات الله تبارك وتعالى.

وأنبّه إلى أنّني في بحث "القول بتفاوت البيان القرآني بين ابن سنان الخفاجي والقاضي الباقلانيّ" ذكرت أنّ أوّل من

أثِر عنه رفض القول بالتّفاوت هو أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ)، وأضيف إليه هنا الإمام الطبري(ت٣١٠هـ) فهما متعاصران.

٢- أبو مسلم الأصفهاني(٤٥٩هـ) [١]

وممن نسب إليه أنّ البلاغة القرآنية لا تتفاضل أبو مسلم الأصفهاني المعتزلي المغالي في اعتزاله؛إذ قد ذهب في تأويل قول الله تعالى:﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [٢] إلى أنّ المراد منه عدم الاختلاف في رُتَب الفَصَاحَةِ ، حتى لا يكون في جملته ما يُعَدُّ في الكلام الرّكيك، بل بقيت الفصاحة فيه من أوّله إلى آخره على نَهْجٍ وَاحدٍ ودرجةٍ واحدةٍ ؛ و ذكر أن السبب في ذلك أمران:الأوّل: لأنّه كلام الله، وكلام الله ليس به تفاوتٌ؛ لأنّ التّفاوُتَ دليلٌ على البشرية. والآخر:لأنّ القرآن معجزٌ، وإعجازه يقتضي أن تُوضَع كلُّ كلمةٍ فيه في مكانها اللائق بها، منسجمةً مع سياقها متلائمةً مع مقامها.وقد ذكر أبو مسلم أنّ

---

(١) هو أبو مسلم محمد بن علي الأصفهاني، الأديب المفسر النحوي المعتزلي،كان عارفاً بالتفسير والنّحو والأدب، غالياً في مذهب الاعتزال، له تفسيرٌ كبيرٌ،صنّفه في عشرين مجلداً ، توفي سنة ٤٥٩هـ. راجع طبقات المفسرين للداودي ج١ ص١٢٣.وطبقات المفسرين للسيوطي تحقيق علي محمد عمر ج١ ص٩٩،و كشف الظُّنون للقسطنطيني ج١ ص ٤٤٢.ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني ج٥ ص ٢٩٨.

(٢) النساء/٨٢.

القرآن على طوله، وكثرة معانيه وتنوعها، مستوٍ[1] ، وهذا بعض ما أشار إليه الباقلاني.

وأنبّه هنا إلى أنّ موقف أبي مسلمٍ – وهو المعتزلي– يوحي لنا بأنّ الاعتزال لم يكن السبب الرئس والوحيد في مجمل القول بالتّفاضُل، إنما كان أحد الأسباب فقط ، وكان السبب الوحيد عند بعض الأشخاص.

٣– ابن عطية(ت ٥٤٦هـ)

وابن عطية– عليه رحمة الله– يرى أنّ إعجاز القرآن في نظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، من أوّله إلى آخره، وقد بيّن أنّ هذا الإعجاز، يعني أنّ كلَّ لفظة من القرآن، موضوعةٌ في مكانها المناسب، الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير، وهذا ليس في طاقة البشر؛ لأنّ الفصيح منهم يصنع شيئاً من الإبداع، يستفرغ فيه جهده، ولا يزال ينقح فيه، ولو أعطي لغيره لنقّح، ثم لا يزال القصور ملازماً له، أما كتاب الله فلو نَزعتَ منه لفظةً، ثم أدرتَ لسان العرب؛ لتبحث عن أخرى تسدّ مسدّها فلن تجد،كما بيّن أنّ بلاغة القرآن، قد تظهر

([1])ينظر التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٠ ص١٥٧.و المدخل إلى علم البلاغة العربية للدكتور محمود توفيق سعد ص ١٠٠.

لنا في أكثره، وقد تخفى علينا في بعضه؛ لقصورنا في سلامة الذّوق، وجودة القريحة، ومَيْز الكلام. [1]

وقد أكّد هذه النّظرة عند تفسيره لقول الله جل وعلا:﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [2]؛إذْ يقول: وقوله متشابهاً معناه مستوياً، لا تناقض فيه ولا تدافع، بل يُشبه بعضُه بعضاً، في وصف اللّفظ، ووثاقة البراهين، وشرف المعاني... " [3]

فالقرآن مستوٍ في بيانه عند ابن عطية، واستواؤه دليلٌ على الألوهية وآية الإعجاز.

---

(1)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ط دار الكتب العلمية لبنان ط أولى.١٤١٣هـ= ١٩٩٣م ج١/ص٥٢ .

(٢) سورة الزمر/٢٣.

(٣)المحرر الوجيز ج٤/ص٥٢٧.

٤- الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)

والإمام فخر الدّين، محمد بن عمر بن الحسين الرّازي يذهب إلى استواء البيان القرآني، في فصاحته وبلاغته، ويتضح لنا ذلك من خلال كلامه، في مقامين:

الأوّل: عند تفسيره لقول الله -جل وعلا- في سورة النساء:﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (١)

حيث نقل عن العلماء أقوالهم في تفسير معنى الاختلاف المنفي عن القرآن، وذكر فيما نقل قولَ أبي مسلم الأصفهاني السّابق (٢)

والثّاني: عند تفسيره لقوله تعالى :﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣) ،وقد وقف مع أوصاف القرآن، وقال في توضيح الصّفة الثّانية: "

---

(١) النساء/٨٢.

(٢)التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى ج١٠/ص ١٥٧ . والطّوامير: جمع طامُور، وهي الصّحيفة.

(٣) سورة الزمر/٢٣.

وأما كونه كلّه متشابهاً -كما في هذه الآية- فقال ابن عباس معناه :أنّه يُشْبِه بعضُه بعضاً. وأقول: هذا التّشابه يحصل في أمورٍ :أحدها: أنّ الكاتب البليغ إذا كتب كتاباً طويلاً، فإنّه يكون بعض كلماته فصيحاً، ويكون البعض غير فصيح، والقرآن يخالف ذلك، فإنّه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه، وثانيها:أنّ الفصيح إذا كتب كتاباً في واقعةٍ بألفاظٍ فصيحةٍ، فلو كتب كتاباً آخر في غير تلك الواقعة، كان الغالب أنّ كلامه في الكتاب الثاني غيّر كلامه في الكتاب الأوّل، والله تعالى حكى قصة موسى عليه السّلام في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن، وكلُّها متساويةٌ متشابهةٌ في الفصاحة، ..." (١)

فالفخر الرازي بكلامه، وبالكلام الذي نقله عن أبي مسلم الأصفهاني والباقلاني، يُقرّر أنّ البيان القرآني مستوٍ و غيرُ متفاضلٍ، على الرغم من وجود كلِّ الأسباب التي تدعو إلى التفاوت،كالطُّول، واختلاف المعاني، وإعادة الكتابة في الموضوع مرّةً أخرى، وهذا التّفاوت الذي نفاه عن الكتاب الكريم يشمل التّفاوت في أصل الفصاحة، والتّفاوت في درجاتها، بمعنى أنّك لا تجد فيه كلمةً واحدةً غير فصيحة، وهذا بخلاف البيان البشري، فإنّ الكاتب البليغ إذا كتب كتاباً طويلاً، فإنّه يكون بعض كلماته فصيحاً، ويكون بعضها غير فصيح ،

---

(١)التفسير الكبير ج٢٦/ص٢٣٦.

والقرآن بخلاف ذلك فهو كامل الفصاحة بجميع أجزائه.

كما لا تجد فيه اختلافاً في رُتَبِ الفصاحة، بل بقيت الفصاحةُ فيه، من أوله إلى آخره، على نهج واحدٍ، والإنسان يعلو بيانه حيناً ويهبط حيناً، وغير خفيّ أنّ السّبب وراء استواء البيان القرآني- عند الرازي- هو ربانية القرآن وإعجازه.

٥- القرطبي(ت٦٧١هـ)

والقرطبي – رحمه الله – نفي عن القرآن التّفاوت بكُلِّ أشكاله وألوانه، سواء أكان في الوصف أم في اللّفظ أم في المعنى أم في غيرها،عند تفسير قوله تعالى:﴿ فَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (١)، ومن المعلوم أن تفاوت بلاغته يدخل في التّفاوت في الوصف، والقرطبيّ يمنعه، وقد أكّد ذلك في قوله عند تفسير قوله تعالى:﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (٢):" متشابهاً" يُشْبه بعضُه بعضاً في الحُسْن والحكمة، ويُصدّق بعضه بعضاً، ليس

---

(١) النساء/٨٢.راجع تفسير القرطبي ط دار الشعب بالقاهرة ج٥/ص٢٩٠.

(٢) الزمر/٢٣.

فيه تناقضٌ ولا اختلافٌ " [1] تأمّل قوله:يشبه بعضه بعضاً في الحسن

٦- القاضي البيضاوي(ت٦٩١هـ) [2]

وممن يرى باستواء البيان القرآني القاضي البيضاوي في تفسيره المشهور، تأمّل كلامه عند تفسير قوله تعالى :﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [3]

" أي ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار " لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً " من تناقض المعنى، وتفاوت النّظم، وكان بعضه فصيحاً، وبعضه ركيكاً، وبعضه يصعب معارضته، وبعضه يسهل، ومطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض، على ما دلّ عليه الاستقراء؛ لنقصان القوة البشرية..." [4]

وعند تفسيره لقوله تعالى:﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ

---

(١)تفسير القرطبي ج١٥/ص٢٤٩.

(٢)هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، أبو الخير، ناصر الدين، قاضي القضاة، البيضاوي الشافعي، له مصنفاتٌ كثيرةٌ، منها مختصر الكشاف المسمى:بأنوار التنزيل وأسرار التأويل" توفي سنة ٦٩١هـ وقيل سنة ٦٨٥هـ ينظر طبقات الشافعية ج٢ ص١٧٣.وطبقات المفسرين للداودي ج١ ص٢٥٥.

(٣)النساء/٨٢.

(٤)تفسير البيضاوي ط دار الفكر بيروت .ج٢/ص٢٢٥.

كِتَاباً مُّتَشَابِهاً ﴾ [1]يؤكد استواء بلاغة القرآن وإعجازه فيقول:"وتشابهه تشابه أبعاضه في الإعجاز، وتجاوب النّظم، وصحة المعنى، والدلالة على المنافع العامة [2]

٧- النسفي [3](٧٧٣هـ)

والنّسفي ممن يذهب إلى أنّ القرآن الكريم، على درجةٍ واحدةٍ في الفصاحة والبلاغة، اسمع إلى كلام الشّيخ: عند تفسيره لآية النّساء" لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً " أي تناقضاً من حيث التوحيد والتّشريك، والتّحليل والتّحريم، أو تفاوتاً من حيث البلاغة؛ فكان بعضُه بالغاً حدّ الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته، أو من حيث المعاني.. "[4]

([1]) الزمر/٢٣.

([2])تفسير البيضاوي ج٥/ص٦٤.

([3]) هو أبو البركات النسفيّ، عبد الله بن أحمد بن محمود ،حافظ الدين، صاحب كتر الدقائق، وكتاب المنار في أصول الفقه، وكتاب العمدة في أصول الدين،مات في الليلة التي مات فيها البهاء السبكي، وهي السابع من رجب سنة ٧٧٣هـ رحمهما الله. راجع أبجد العلوم لصديق بن حسن القنوجي تحقيق عبد الجبار زكار.دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨م ج٣ ص ١١٩.

([4])تفسير النسفي. ج١/ص٢٣٦.

وأكّد هذا المذهب عند تفسيره لآية الزمر فقال:" "متشابهاً " يُشبه بعضُه بعضاً في الصّدق والبيان، والوعظ والحكمة، والإعجاز وغير ذلك" [1]

٨- برهان الدين البقاعي(ت٨٨٥هـ)

والإمام برهان الدين البقاعي ممن يذهب إلى استواء البلاغة القرآنيّة وعدم تفاوتها وتفاضلها، يتّضح لنا ذلك من تفسيره الاختلاف المنفي عن القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [2] بأنّه التّفاوت في الإعجاز ".[3]

ويُؤكّد هذا الفهم عند وقوفه لتفسير قوله تعالى:﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...﴾ [4]؛ إذ يقرر بأنّ القرآن الكريم متشابهٌ في بلاغته المعجزة، لا تفاوت فيه أصلاً في لفظ ولا معنى، مع وجود الأسباب التي تجلب التّفاوت عليه؛ ومن أقواها تباعد مدة نزوله؛ إذ نزل مفرّقاً في نيّفٍ وعشرين سنة، وهو في هذا يُباين البيان البشري؛ إذ

([1])المصدر السابق ج٤/ص٥٢ .

([2]) النساء/٨٢.

([3]) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور .ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ثالثة ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م.ج٢ ص ٢٨٧.

([4]) الزمر/٢٣.

التّفاوت صفة لازمة له، وإن انعدمت الأسباب التي تجلب التّفاوت عليه، مع إدامة التّنقيح والتّهذيب، وكأنّه بهذا الكلام يُشير إلى أنّ استواء البيان القرآنيّ في فصاحته و بلاغته دليلٌ على الألوهية كما أنّ التفاوت دليلٌ على البشرية. (١)

٩ – الطّاهر بن عاشور(ت١٣٩٣هـ)

ومن المفسرين المُحْدَثين من ذهب إلى استواء البيان القرآني في فصاحته وبلاغته، ورفض التّفاضل في ذلك رفضاً قاطعاً، وذلك كالطّاهر بن عاشور في تفسيره القيّم"التّحرير والتّنوير"،وقد أعلن ذلك بصراحةٍ ووضوحٍ؛ إذ يقول في مقدمة تفسيره: "فَإِنَّهُ مَعَ بُلُوغِهِ أَقصَى حَدٍّ فِي فَصَاحَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمَعَ طُولِ أَغْرَاضِهِ، وَتَفَنُّنِ مَعَانِيهِ، وكَوْنِهِ نَثْرًا لَا شِعْرًا، تَرَى أُسْلُوبَهُ يَجْرِي عَلَى الْأَلْسِنَةِ سَلِسًا سَهْلًا، لَا تَفَاوُتَ فِي فَصَاحَةِ تَرَاكِيبِهِ ". (٢)

وعند تفسيره لقول الله تعالى:﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (٣) يرى أنّ البيان القرآني في أقصى درجات الفصاحة والبلاغة،

---

(١) راجع نظم الدرر ج ٦ ص٤٣٨.

(٢)التحرير والتنوير ط الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م ج ١ص ١١٥.

(٣) الزمر/٢٣.

ويرى بأنّ هذا البيان ليس متفاوتاً في فصاحته ولا بلاغته، على اختلاف أغراضه وتفنُّن معانيه، وإنّما بلغ جميع آياته الحدّ الأعلى من البلاغة؛ وهي متساويةٌ في ذلك، بحسب ما يقتضيه حال كل آية منه، و قد أشار الطّاهر- وهو من المدققين- إلى أنّ تفاوت الآيات في كَثْرَةِ الْخُصُوصِيَّاتِ وَقِلَّتِهَا- وهو ما يُعَبَّر عنه باختلاف ضروب النّظم- تَابِعٌ لِاخْتِلَافِ الْمَقَامَاتِ وَمُقْتَضَيَاتِ الْأَحْوَالِ،ولا علاقة له، بالحكم على الكلام، بأنّه في أعلى درجات البلاغة؛ لأنّ البلاغة إنّما هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والطّرف الأعلى من البلاغة، هو مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال، وليس في كثرة الخصوصيات والاعتبارات.وبهذا يتجلى لنا أنّه قد وافق على القول بتفاوت ضروب النَّظم؛ لكنّه رفض بشدة القول بتفاوت البيان القرآني.

فآيات القرآن الكريم عنده متشابهةٌ ومتماثلةٌ في الحسن، ويُدرك هذا أهل الذوق من البلغاء بالسّليقة أو بالعلم.

كما بيّن- طيّب الله ثراه- أنّ القرآن الكريم مخالفٌ بحالته هذه للبيان البشري؛ لأنّ البيان البشري لا يخلو من التّفاوت، فالكاتب

البليغ، والشّاعر المجيد، لا يخلو كلامهما من ضعفٍ في بعضه، والحسن عندهما تراه متفاوتاً في حسنه وبلاغته ومعانيه. [1]

١٠- سيد قطب

و سيّد قطب- طيّب الله ثراه- لا يذهب إلى استواء بلاغة القرآن فحسب؛ ولكنّه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك؛ فيرى - وهو محقٌّ في ذلك- أنّ القرآن الكريم مستوٍ في كلّ شيءٍ، وقد جعل استواءه ظاهرة من ظواهره اللّافتة للنّظر، سمّاها "ظاهرة التّناسق أو ظاهرة عدم الاختلاف "، وقد بيّن مفهومها ومستوياتها، وكيفية إدراكها، ونحاول أن نوجز كلامه في هذه الظاهرة فيما يأتي.

أ- ظاهرة التّناسق و عدم الاختلاف في القرآن الكريم

يتحدّث سيّد قطب عن ظاهرة التّناسق وعدم الاختلاف في القرآن الكريم، ويرى أنّهاظاهرةٌ مطلقةٌ وشاملةٌ وكاملةٌ، وهو يعني بذلك، أنّها في هذا الكتاب الخالد على الإطلاق، تشمل كلّ كلمة فيه- بل كلّ حرف- من أوله إلى آخره.

كما بيّن أنّ هذه الظّاهرة- على وجودها في القرآن- ليست سهلة المنال، وإنّما تحتاج في إدراكها إلى تدبّر، ومن ثمّ

---

(١) راجع: التحرير والتنوير ج٢٣ ص ٣٨٦.

فإنّ العقول والأجيال تختلف في إدراك مداها، فكلّ عقلٍ وكلّ جيلٍ يجد منها- بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه - ما يملك إدراكه ، وتأمّل في تلك الأدوات، التي أشار إليها سيّد، والتي تُعين من يتدبّر القرآن على إدراك هذه الظّاهرة: القدرة- الثّقافة- التّجربة- التّقوى.

وقد أشار إلى أنّ الطائفة التي خاطبها القرآن الكريم، من الجيل الأوّل، كانت تُخاطب بشيءٍ تُدركه، و تملك التّحقّق منه. [1]

ب- مستويات التّناسق القرآني

وحاول سيّد قطب - بعد ما أشار إلى أنّ تناسق القرآن مطلق، شاملٌ له من أوله إلى آخره، لا يندُّ عنه حرفٌ واحدٌ- أن يُبيّن مستويات هذه الظاهرة في القرآن الكريم ؛ فذكر مستويين، هما:

١- تناسق التّعبير اللّفظي والأداء الأسلوبي

يقول سيّد قطب في توضيح هذا المستوى :"وتتجلى هذه الظّاهرة. ظاهرة عدم الاختلاف . . أو ظاهرة التّناسق. . ابتداءً في التّعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية . . ففي كلام البشر تبدو القِمَمُ والسُّفوح؛ التّوفيق والتعثُّر. القوّة

([1]) في ظلال القرآن لسيد قطب .دار الشروق ط التاسعة ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م ج ٢ ص ٧٢١.

والضّعف. التّحليق والهبوط. الرَّفْرَفة والثّقلة . الإشراق والانطفاء . . إلى آخر الظّواهر التي تتجلى معها سمات البشر. وأخصها سمة" التغيّر"، والاختلاف المستمر الدائم، من حال إلى حال. يبدو ذلك في كلام البشر، واضحًا عندما تستعرض أعمال الأديب الواحد، أو المفكر الواحد، أو الفنان الواحد، أو السياسيّ الواحد، أو القائد العسكري الواحد. . أو أيّ كان في صناعته التي يبدو فيها الوسم البشري واضحًا . . وهو:التغيُّر ، والاختلاف . .

هذه الظاهرة واضحٌ كلّ الوضوح أنّ عكسها وهو:الثبات والتّناسق ، هو الظّاهرة الملحوظة في القرآن – ونحن نتحدّث فقط عن ناحية التّعبير اللفظي والأداء الأسلوبي – فهناك مستوى واحدٌ في هذا الكتاب المعجز – تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التي يتناولها - ولكن يتّحد مستواه وأفقه، والكمال في الأداء، بلا تغيّرٍ ولا اختلافٍ، من مستوى إلى مستوى ... كما هو الحال في كلّ ما يصنع الإنسان...إنّه يحمل طابع الصّنعة الإلهية ؛ ويدل على الصّانع. يدلُّ على الموجود الذي لا يتغيَّر من حالٍ إلى حالٍ، ولا تتوالى عليه الأحوال !" [1]

فسّيد قطب – رحمه الله– يرى أنّ التّعبير القرآني على

([1]) في ظلال القرآن ج ٢ ص ٧٢١. .

مستوى واحدٍ، تختلف ألوان التعبير فيه باختلاف الموضوعات التي يتناولها، ولكن يتّحد مستواه بلا تغيّر ولا اختلاف، وهو في هذا يختلف عن كلام البشر الذي يتغيّر ويختلف، والسّر في ذلك أنّ كلام الله يحمل طابع الصّنعة الإلهية، بينما يحمل كلام البَشَر سمات البَشَر، وأخصّها التغيُّر والاختلاف المستمر الدائم.

والسيّد بهذا يجعل الاستواء دليلاً على الألوهية، والتّفاوت دليلاً على البشرية، وقد أشار إلى ذلك كثيرٌ العلماء على اختلاف طوائفهم.

٢- تناسق المنهج

ثمّ بيّن سيّد قطب – رحمه الله – بعد ذلك أنّ ظاهرة عدم الاختلاف . . والتّناسق المطلق الشامل الكامل تتجلّى . . في ذات المنهج الذي تحمله العبارات . ويُؤديه الأداء . .

و أشار إلى أنّه إذا كان الفارق بين صنعة الله، وصنعة الإنسان واضحاً كلّ الوضوح في جانب التّعبير اللفظي والأداء الفني، فإنّه أوضح من ذلك في جانب التّفكير والتّنظيم والتّشريع ...

كما أشار إلى أنّ تدبّر هذه الظّاهرة- التناسق-، في آفاقها هذه، قد لا يتسنّى لكُلّ إدراكٍ، ولا يتسنّى لكُلّ جيلٍ .بل

المؤكّد أنّ كلّ إدراك سيتفاوت مع الآخر في إدراكها ؛ وكل جيل سيأخذ بنصيبه في إدراكها ويدع آفاقاً منها للأجيال المترقية، في جانبٍ من جوانب المعرفة أو التّجربة. . إلا أنّه يتبقّى من وراء كلّ الاختلاف البشري الكثير في إدراك هذه الظّاهرة – كاختلافه الكثير في كلّ شيءٍ آخر ! – بقيةٌ يلتقي عليها كلّ إدراكٍ، ويلتقي عليها كلّ جيلٍ . . وهي أنّ هذه الصّنعة الإلهية شيءٌ وصنعة البشر شيءٌ آخر . وأنّه لا اختلاف في هذه الصّنعة ولا تفاوت ، وإنّما وحدة وتناسق . . ثم يختلف النّاس بعد ذلك ما يختلفون، في إدراك آماد وآفاق وأبعاد وأنواع ذلك التّناسق ! .

وأخيراً جاء قوله عن هذا الكتاب أنّه متناسقٌ، لا اختلاف في طبيعته، ولا في اتجاهاته، ولا في روحه، ولا في خصائصه. فهو متشابه" [1]

١١– الشيخ محمد متولي الشّعراوي

والشّيخ الشّعراوي – رحمه الله وأثابه– يرى بأنّ القرآن الكريم، على طوله مستوٍ في فصاحته و في معانيه، ليس به تفاضل في الفصاحة ولا تناقضٌ في المعنى، والسّبب في ذلك أنّه كلام من لا يتغيّر، وهو الله –سبحانه وتعالى–، و

([1]) راجع :في ظلال القرآن ج ٢ ص٧٢٢.

بيان القرآن بهذا يخالف بيان صاحب الأغيار- البشر-؛ لأنّه يتغيّر ويتناقض؛ ولذا قال الشيخ هاتوا أيّ أديب من الأدباء ليكتبَ مثل هذا القرآن، ثم انظروا في فصاحته، فإنّكم تجدونه قوياً في ناحيةٍ وضعيفاً في ناحيةٍ أخرى، موفقاً في معنى متناقضاً في آخر كما تجلّى مع أبي العلاء. [1]

ثالثاً: علماء البلاغة والنّقد

ذكرتُ سابقاً أنّ كثيراً من البلاغيين، قد قال بتفاضُل البيان القرآني، في فصاحته وبلاغته، و نحاول هنا أنّ نقف مع البلاغيين الذين رفضوا هذا القول رفضاً باتاً قديماً وحديثاً لنجلّي موقفهم، وهم:

١- حازم القرْطاجَنّي(ت٦٨٤هـ)

تحدّث أبو الحسن حازم القرْطاجَنّي عن أوجه الإعجاز في كتابه "مِنْهَاج البُلغاء وسِرَاج الأُدباء"، وعدّ استواء البيان القرآني في فصاحته و بلاغته وجهاً من وجوه الإعجاز؛ فقال - رحمه الله- :"إنّ الإعجاز فيه من حيث استمرّت الفصاحةُ

([1])راجع: تفسير الشعراوي . ط.دار أخبار اليوم ج ٤ ص ٢٤٦٨

والبلاغةُ فيه، من جميع أنحائها في جميعه؛ استمراراً لا تُوجد له فترة، ولا يقدر عليه أحدٌ من البشر، وكلامُ العرب ومَنْ تكلّم بلغتهم لا تستمرُّ الفصاحةُ والبلاغةُ في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشّيء اليسير المعدود، ثم تعْرض الفتراتُ الإنسانيةُ، فتقطع طيبَ الكلام ورونقه، فلا تستمرُّ لذلك الفصاحةُ في جميعه، بل تُوجد في تفاريق وأجزاء منه.والفترات في الفصاحة تقع للفصيح، إمّا بسهوٍ يعرض له في الشّيء من غير أن يكون جاهلاً به، أومن جهلٍ به، أو مِنْ سآمةٍ تعتري فكرَه، أو من هوىً للنفس يغلب عليها فيما يحُوش عليها خاطره، من اقتناص المعاني سمِينًا كان أو غثّاً.فهذه آفاتٌ لا يخلو منها الإنسان الفاضل الطّبع الكامل".(١)

فأبو الحسن – رحمه الله– يرى أنّ من وجوه إعجاز القرآن استمرار الفصاحة والبلاغة فيه، من أوله إلى آخره، استمراراً لا تجد فيه انقطاعاً، وهذا لا يقدر عليه أحدٌ من البشر؛ لأنّ كلام العرب البليغ لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميعه، بل تتحقق في أجزاء منه، ثم تعرض له الفترة؛ إمّا بسبب سهوٍ يعرض للمتكلم، أو جهلٍ، أو سآمةٍ، أو هوى،

---

(١) منهاج البُلغاء تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ط دار الكتب الشرقية ١٩٦٦م الملحق ص ٣٨٩. و يُنظر البرهان للزركشي ج ٢ ص١٠١. والإتقان للسيوطي ج ٤ص٩٩٨ ، والإعجاز النحوي في القرآن الكريم للدكتور فتحي عبد الفتاح الدجني.مكتبة الفلاح الكويت ط أولى ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م ص ٦٢.

وهذه الآفات لا يسلم منه الإنسان الفصيح الكامل الطّبع.

٢- يحيى العلوي (ت٧٤٩هـ)

وجاء السيّد الإمام أميرُ المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني في كتابه:"الطّراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز"، ووقف مع هذه القضية مرتين، وقد أكّد فيهما على استواء البيان القرآني في بلاغته وفصاحته؛ و اعتبر ذلك وجهاً من وجوه الإعجاز ؛ إذ يقول – رحمه الله– " إنمّا صار القرآن معجزًا لكونه دالاً على تلك المحاسن والمزايا التي لم يختصّ بها غيره من سائر الكلام...والقرآن كلُّه من أوله إلى آخره حاصلٌ على هذه المزايا موجودةٌ فيه على أكمل شيءٍ وأتمّه، فلله درُّه من كتابٍ اشتمل على علوم الحكمة وضَمَّ جوامعَ الخطاب، وأودعَ ما لم يُودَعْ غيره من الكتب المُنزّلة من حقائق الإجمال ودقائق الأسرار المفصّلة.. وليس في آي القرآن المجيد حرفٌ إلا وتحته سرٌّ ومصلحةٌ فضلاً عما وراء ذلك..." [١] . ومضى العلويّ يكشف عن أسرار و لطائف قوله تعالى:﴿ قالَ رَبِّ إنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً وَلَمْ أكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾ في أسلوبٍ عذبٍ فيّاض، لولا الإطالةُ لَكَحّلتُ بَصرَكَ بجَمَالِهِ.

---

(١) الطّراز ط دار الكتب العلمية .بيروت. لبنان. ج ٣ص ٤١٥.

وعندما وَقفَ ليردّ على بعض المطاعن، التي طعن بها أعداء الإسلام على القرآن، وقف مع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [1]، وحمل الاختلاف المنفي عن كتاب الله -سبحانه وتعالى- على أنّه الاختلاف في الفصاحة، وبيّن "نّ فصاحته شاملةٌ له من جميع الوجوه، و بها تميَّزَ عن سائر الكتب، فإنّ الظّاهر مِنْ حال مَنْ صَنَّفَ كتاباً طويلاً على مِثْل طُولهِ، أن لّا يبقى كلامُه في الفصاحة على حدٍّ واحدٍ ونَظْمٍ مُتَّفِقٍ، بل يكون كلامُه في بعض المواضع صحيحاً، وفي بعضها ركيكاً فاسداً، بخلاف القرآن، فإنّه حاصلٌ على طريقةٍ واحدةٍ في البلاغة والفصّاحة، وحسن الانتظام وجودة الاتِّساق..." [2]

٣- الفنري (ت٨٣٤هـ) [3]

([1]) النساء/٨٢.

([2]) الطّراز ج٣ص ٤٣٦.

([3])شمس الدين أبو الكمالات محمد حمزة بن محمد الفنري (أو الفناري) الرومي الحنفي كان عالماً فاضلاً في جميع العلوم،من تصانيفه أساس التّصريف،وأسامي الفنون،وشرح تلخيص المفتاح ،وشرح فوائد الغياثية في المعاني والبيان والبديع، وحاشية على شرح الشّمسية للسيد الشريف،وحاشية على ضوء المفتاح، وحاشية على شرحيْ السّيد والسّعد للمفتاح(ت٨٣٤هـ) راجع الشقائق النعمانية العقد المنظوم لطاشكبري زادةط دار الكتاب العربي بيروت ١٣٩٥هـ= ١٩٧٥م ج١ ص ١٧،وهدية العارفين ج ٦ص ١٨٨،وطبقات المفسرين للداودي ج١ ص ٣١٧.وتاريخ علوم البلاغة للمراغي ص١٤٢.

ويقول الفنري في تعقيبه على كلام السّعد، الذي يقول فيه بتفاضُل البلاغة القرآنية :"لا تفاوت في البلاغة القرآنية، وسرُّه أنّ الله- تعالى- عالمٌ بكميات الأحوال وكيفياتها؛ فيلزم أنّ يكون كلامه المشتمل عليها، في أعلى المراتب، إلا أنّ بعضاً منه لقلته يمكن للبشر الإتيان بمثله وإن لم يقع. وتوجيهه- أيْ السّعد- يقتضي التّفاوت فيها؛ حيث جعل حدّ الإعجاز الطّرف الأعلى وما دونه، مما يقرب منه، وأيّد ذلك في المطول بأنّ بعض الآيات القرآنية أعلى طبقة من بعض، وإنْ كان الجميع مشتركاً في امتناع المعارضة. فإنْ قُلْتَ: لا يمكن إنكار تفاوت الآيات في البلاغة. قُلْتُ: التّفاوت الحاصل فيها بالنّظر إلى أنّ الأحوال المقتضية للاعتبارات في بعضها أكثر، فالمقتضيات المرعيّة فيها أوفر من المقتضيات المرعيّة في الأخرى، وذلك لا يقدح في أن يكون كلٌّ منها في الطّرف الأعلى، أيْ في مرتبةٍ من البلاغة، لا بلاغة فوقها، بالنسبة إلى تلك الآية؛ لوجوب اشتمال كلّ آيةٍ على جميع مقتضيات الأحوال التي في نفس الأمر بناءً على إحاطة علم الله- تعالى- بجميعها فتأمَّل". (١)

فالفنري- رحمه الله- يرى بأنّ البلاغة القرآنية غير

---

(١) حاشية التّحريد للبناني مع تقرير الشمس للإنبابي على شرح سعد الدين التفتازاني لتلخيص المفتاح ط مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٠هـ ج١ ص ٣٢٧.

متفاوتةٍ، وذلك لأنّ الله عالم بكميات الأحوال والمقامات، وبما تقتضيها من الاعتبارات المناسبة؛ فيعطي لكلّ مقامٍ ما يناسبه من الاعتبارات، وإذا كان الفنرى يرى بأنّ البلاغة القرآنية غير متفاوتة، فإنّه يرى بأنّ النّظم متفاوتٌ، وذلك لأنّ الأحوال المقتضية للاعتبارات في بعضها أكثر، ومن ثمّ تكون المقتضيات المرعيّة فيها، أوفرَ من المقتضيات المرعيّة في الأخرى، وقد بيّن الفنري أنّ تفاوت النّظم لا يُسْلِم إلى تفاوت البلاغة؛ لأنّ الكُلّ في المرتبة العليا التي لا يفوقها شيءٌ؛ وذلك لأنّ كلّ آيةٍ مشتملةٌ على جميع مقتضيات الأحوال التي لا يحيط بها إلا علام الغيوب.

و قد عقّب الشّيخ يس العُلَيْمي [1]، على كلام الفنري، بأنّ تفاوت البلاغة القرآنية بالنّظر إلى ما ذكر، هو مراد الشّارح – السّعد – من تفاوتها؛ فالبعض الذي مقتضياته واعتباراته أكثر، أعلى طبقة مما ليس كذلك، وإن اشتركا في أنّ كُلّاً منهما، رُوعي فيه جميعُ ما اقتضاه الحالُ، في نفس الأمر، على أنّه يمكن أن يُدَّعى تفاوتُ نفس البلاغة القرآنية، بغير النّظر إلى ما ذكر؛ بأن يكون أحدُ الكلامين أبعد عن أسباب الإخلال بالفصاحة، كأنْ لا يكون في أحدهما شائبة ثقل، ويكون

---

(1) هو:يس بن زين الدين بن أبي بكر الحمصي الشّافعي الشهير العُلَيْمي، ولد بحمص ورحل إلى مصر، و بها نشأ وتصدّر في الأزهر لإقراء فنون كثيرة، ومن مؤلفاته حاشية على المطول للسعد وحاشية على المختصر له، وحاشية على التصريح لخالد الأزهري(ت١٠٦١هـ) راجع تاريخ علوم البلاغة للمراغي ص ١٨٥.

في الآخر شائبة ثقل، لا تخل بالفصاحة، نحو: "فسبّحه"، ولا شكّ أنّ انقطاع الشائبة بالكليّة أدخلُ في الفصاحة، وموجبٌ للأعلوية في البلاغة؛ فيندفع الأمر الثّاني من أصله. [1]

فالشّيخ يس يذكر بأنّ مراد السّعد، من القول بتفاوت البلاغة القرآنية، ينحصر في التفاوت في درجات الفصاحة؛ بأنْ يكون بعض الآيات الذي تُذْكَر فيه اعتباراتٌ أكثر، أعلى طبقة ممّا ليس كذلك، وقد ردّ الفنري على ذلك.

ثم ذكر توجيهاً آخر للقول بتفاوت البلاغة القرآنية، خلاف التوجيه الذي ذهب إليه السعد و ردّ عليه الفنري، وهو ما ذكره الشّيخ يس في قوله: ويمكن أن يُدّعى...، وهذا التوجيه يُحمل التفاوتُ فيه، على أنّه في أصل الفصاحة؛ بأنّ يكون أحد الكلامين بعيداً عن الأسباب التي تخل بفصاحته، ويكون في الآخر شائبة ثقل، واستشهد على ذلك بقوله : "فسبّحه"،وكأنّه يرى في ذلك شائبة ثقلٍ، ثم يقول: ولا شك أنّ انقطاع الشائبة بالكُليّة، أدخل في الفصاحة وموجب للأعلوية في البلاغة.

ولستُ أدري من الذي يمكن أن يدّعي على كتاب الله – جلّ وعلا– بأنّ فيه كلمة غير فصيحة ؟!!،" والقول باشتمال

---

(1) حاشية التجريد مع التقرير ج١ ص ٣٢٩.

القرآن على كلامٍ غير فصيح، بل على كلمةٍ غير فصيحة، ممّا يقود إلى نسبة الجهل، أو العجز إلى الله تعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً"[1]

ثمّ إنّي لأعجب من استشهاد الشّيخ يس بقوله تعالى:"فسبّحه"، وحكمه عليه بأنّ به شائبة ثقل؛ تُؤثّر على فصاحته وبلاغته، وهذا ما يُوحي به قوله: ولا شك أنّ انقطاع الشائبة بالكُليّة، أدخل في الفصاحة وموجب للأعلوية في البلاغة"

وهذه الجملة جاءت مرتين في القرآن الكريم، مرةً في سورة (ق) في قوله تعالى:" وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ" [2] ،ومرةً في سورة الطور في قوله تعالى:" وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ" [3] ، ولا أجد فيها ثقلاً، وعلى التسليم بوجود شائبة الثّقل كما ذكر العليمي، فإنّي أرى أنّ هذا الثّقل الطّفيف لا يُؤثر على فصاحة الجملة وبلاغتها؛ كما أوحى بذلك كلام العليمي، وإنّما هو سر فصاحتها؛ إذ يُصوّر هذا الثقلُ الفصيح ، ثقلَ التكليف بالصّلاة أو التّسبيح، في هذه الأوقات التي تكون العبادة فيها ثقيلة إلا على المتقين.

---

(1) المطول لسعد الدين التفتازاني ص ١٨.

(2) الآية رقم/٤٠.

(3) الآية رقم/٤٩.

٤- الدُّكتور محمد نايل

والدُّكتور نايل في كتابه" نظرية العلاقات أو النّظم بين عبد القاهر والنقد الغربي الحديث" تحدّث عن درجات النّظم عند الإمام عبد القاهر ومستوياته، ووافقه في أنّ الصّناعة تتفاوت على درجاتٍ، وأنّها أمارةٌ على البراعة والحذق وطول الباع، وأنّ لها لطائف لا تُحصَرُ، ثم بيّن أنّ رأيَ عبد القاهر في صناعة النّظم وتفاوتها، رأيٌّ خطيرٌ، له آثارٌ بعيدةٌ المدى؛ تتصل بقضية الجمال،كما تتصل بقضية الطّبع والصّنعة، وأخيراً برأي العلماء في تفاوت النّظم والبلاغة في القرآن الكريم، وقد فصَل الدُّكتور نايل قضية الجمال، عن قضية الصَّنعة، فليس كلُّ مصنوع – وإنْ دقتْ صنعتُه- جميلاً، وليس كلُّ عاطلٍ من الصّنعة قبيحاً، واستعرض بعض آراء النّقاد القدماء في ذلك، ثم خلص إلى الحديث عن رأيه، في تفاوت بلاغة القرآن تبعاً لتفاوت نظمه؛ فقال:" و أكبر الظّن أنّ الذين قالوا بتفاوت بلاغة القرآن الكريم تبعاً لتفاوت نظمه، وأنّ فيه ما يعلو بعضُه بعضاً وإنْ كان الجميع معجزاً، إنمّا تأثروا برأي عبد القاهر في كلمة الجاحظ ، وبحديثه عن طبقات النّظم والصّياغة؛ فقد رأوا في القرآن نظماً لم يعتمد أكثر من التّعاطف ونسق الجمل، وآخر اعتمد الدّقة والتّفنُّن في التّصوير ؛ فقالوا: إنّ الأوّل أقلُّ بلاغة من الثّاني، و ثمَّ قال :ومن العجيب أنَّ هذا الرأي يكاد يلقى الإجماع من علماء البلاغة المتأخرين.

وقد أعلن عن رأيه فقال :ونحن نخالف في ذلك أشد الخلاف، ونرى أنّ بلاغة القرآن وتأثيره، لا تختلف باختلاف نظمه، إنّ رأينا هنا هو رأينا في الفرق بين كلام الجاحظ، وذلك الكلام الذي دقت فيه الصَّنعة، إنَّنا نُسلِّم بأنّ نظم القرآن يختلف على صورٍ ودرجاتٍ، ولكنّنا لا نُسلِّم بأنّ جماله وروعته وسحره، يختلف لاختلاف درجات النَّظم؛ فليست البلاغة وجمالها وتأثيرها قائمة على النَّظم وحده، حتى تتفاوت بتفاوته، وتجيء درجاتها وفق درجاته، إنّ النّظم عنصرٌ من عناصر الجمال، وبجانبه عناصر أخرى كما سبق.إن الآيات التي جاءت في معرض التّعاطف والتّناسق، لا تقل جمالاً في معناها وموقعها، وفي الغرض الذي سيقت له، عن تلك التي جاءت دقيقة النّظم عجيبة التّفنُّن والصوغ.

وحاول الشّيخ نايل أن يُدلّل على رأيه؛ فأتى بنموذجين من القرآن: أحدهما: ليس به كثيرٌ من الخصوصيات البلاغية، وإنما يُبنى على النّسق، وهو ما يعبر عنه بالنّمط الأوسط من أنماط النّظم، والآخر: زاخرٌ بالخصوصيات، وهو ما يعبر عنه بالنّمط الأعلى، وبيّن أنهما سواء في الجمال والبلاغة، يقول رحمه الله: لنقرأ قول الله تعالى في سورة النبأ:﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً۞ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً۞وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً۞ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً۞ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً

وَهَّاجاً۞ وَأنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً۞ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً۞ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾[1]

الآيات كما ترى، جملٌ متعاطفةٌ ومعان متجاورةٌ، ليس فيها من فنون النّظم ما يستوقف النّظر، ولكنْ هل يستطيع متذوقٌ، أن يقول إنّها أقل روعة وجمالاً، من قوله تعالى في سورة " الليل" ﴿أَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى۞ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[2]؛ لأنّها خلت مما اشتملت عليه الثّانية، من دقة التّعادل بين الشَّرطين، ورعاية التّقابل بين أجزاء الصُّورتين، إنّ أحداً لا يستطيع أن يزعم هذا الزّعم، إلا إذا كان يقيس الجمال بجهازٍ آلي، يتحسّس صور التّراكيب، وكمية التّصرُّف في أجزائها، فأما إذا كان معنا ومع النّاس، في أنّ المقياس هو الذّوق والأريحية، وما غشى الكلام من الرَّوْنق والطَّلاوة فلا.

ليس في القرآن، ما يعلو بعضه بعضاً، في الجمال والبلاغة، ولكن فيه ما يفترق بعضه عن بعضٍ، في صورة النّظم، حسب طبيعة المعنى والغرض، وكلٌّ في الدَّرجة التي ليس وراءها مطمعٌ، في حسن العَرْض، وجمال النَّسق، وروعة

---

(1) سورة النبأ/ ٦- ١٦.
(2) الليل/ ٥-١٠.

الأداء، وكمال التّأثير، ولهذا قال عنّه الأوّل :" إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة"؛ فلم يقل إنّه عجيب الصّنع دقيق النَّسج...".[1]

فالشّيخ نايل- رحمه الله- ذكر أنّ القول بتفاوت البيان القرآني في بلاغته، يكاد يلقى الإجماع من علماء البلاغة المتأخرين، وقد رفضه رفضاً قاطعاً، وذكر أنّه ليس في القرآن ما يعلو بعضه بعضاً في الجمال والبلاغة، وإن كان فيه ما يفترق بعضه عن بعضٍ في صور النّظم، كما أبان عن سببٍ من أسباب نشأة هذا القول، وهو حديث العلماء عن طبقات النّظم في القرآن الكريم.

٥- الدُّكتور علي العماري

والشّيخ الدكتور علي العماري، ممّن يؤمن باستواء بلاغة القرآن، ويتضح لنا رأيه من بحثه، الذي كتبه "حول إعجاز القرآن" ، وقد طبعته "مجلة الأزهر"، ووزّعته ، مع عدد شهر شوال عام ١٤١٩هـ.

ففي هذا البحث يقول شيخنا- وهو يتكلم عن المعارضات-:" ولم يصلنا كذلك أنّ أحداً من هؤلاء، حاول

---

(١) راجع: نظرية العلاقات ص ٤١.

معارضة القرآن، استجابة للتّحدي، إلا ما روى ابن رشيق في العمدة، من أنّ فصحاء قريش عكفوا على لُبَابِ البُرِّ، وسُلَافِ الخَمْر، ولحوم الضَّأن، والخَلْوة، إلى أنْ بلغوا مَجْهُودَهم،فلمّا سمعوا قول الله عزّ وجلّ:﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [1]يَئِسوا مما طَمِعُوا فيه، وعلموا أنّه ليس من كلام مخلوق. [2]

وهذا النّص يعطينا أنّ فصحاء قريش طَمِعُوا في معارضة القرآن، وأعدُّوا أنفسهم لها، واستعانوا عليها بالأسباب، التي توهّموها معينة على بلوغ الغاية، غير أنّ في آخر النّص ما يُشكِّكُنا في أوله، ذلك أنّ انقطاع قريش عند هذه المحاولة، لما سمعوا الآية السالفة الذكر، يُوهم أنّ ما سبق من آيات القرآن على هذه الآية، لم يكن كافياً؛ لأنْ يقطع طمع قريش، وأنّ في هذه الآية من روائع البلاغة، ما ليس فيما تقدّم من آياتِ..وهو كلام- في رأيي- مدخول، قُصد به إلى إيهام أنّ نهاية الإعجاز، تتحقق في بعض الآي دون بعض، ثم جازت هذه الخدعة على المؤلفين من أصحاب النيات السليمة والإيمان الصحيح فرووها، دون أن ينتبهوا إلى ما تحمل في

([1]) هود/٤٤.

([2]) العمدة في محاسن الشعر وآدابه للحسن بن رشيق القيرواني تحقيق محمد قَرْقَزَان .دار المعرفة. بيروت. لبنان. ط أولى. ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م ج ١ص ٣٨١.

طياتها من مغزى غير لائق، بجلال القرآن الكريم جملة وتفصيلاً ..." [1]

كما أنّ الشَّيخ – رحمه الله– ردّ على ابن سنان" حين جعل يردّ على من زعم أنّ القرآن لا يتفاوت في الفصاحة، وذكر أنّ من يجعل الإعجاز، هو بلوغ الدَّرجة العُلْيا في الفصاحة، لا يعكر عليه أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض"[2]

وهذا الكلام، وإن لم يكن نصاً في القضية، فإنّه يشي برأي الدُّكتور العماري فيها بوضوح، ويُبيّن أنّه ممّن يرى باستواء البيان القرآني، فصاحةً وبلاغة، و عنده أنّ القول بالتّفاوت، لا يليق بجلال القرآن، جملةً وتفصيلاً، وإنّما هو خدعة، جازت على أصحاب النيات السَّليمة، والإيمان الصَّحيح، وهذا أدق وأصدق وصفٍ وُصفت به هذه المقالة التي أطلقها بعض العلماء على كتاب الله الخالد بحسن نية .

٦– الدكتور محمد أبو موسى

ومن خلال قراءتي لما كتبه الشّيخ العلامة الدكتو محمد أبو موسى في كتابه" الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث

([1]) حول إعجاز القرآن للدكتور علي العماري ص ٢٤.

([2]) حول إعجاز الدكتور ص ٧٤.

أهل العلم"[1] وجدت أنّه قد أشار إلى قضية البحث، في أكثر من موضع؛ إذ أشار إليها عند حديثه عن الخطابي، وأشار إليها عند حديثه عن الباقلاني، و ابن حزم.

والشّيخ الجليل – وإن كان يَدْرُس الإعجاز عند هؤلاء الأعلام، ويُجلّي موقفهم منه– كانت له نظراتٌ صائبةٌ وتحليلاتٌ رائعةٌ قلّما تجتمع لغيره – وهذا شأنه دائماً–، وسوف أحاول أنْ أرصد رأيه في القضية من خلال وقفاته الثّلاث.

أ– عند حديثه عن الخطابي

قال شيخنا– وهو يُحلّل حديث الخطابي عن البلاغة الخاصّة بالقرآن الكريم:"ذكر في هذا النّص أنّ التّفاوت في البيان، وفي أقدار الكلام وصفٌ لازمٌ لبلاغة البشر، فالكلامُ المحمودُ يتنزّل على مراتب ثلاثة: البليغ الرَّصِين الجَزْل، وهو أعلاها. والفصيح القريب السَّهْل وهو أوسطها، والجائز الطّلْق الرَّسْل وهو أدناها.

ولو أنّ الخطابي ذكر أنّ هذا التّفاوت غيرُ كائنٍ في القرآن، لكان أقربَ إلى الكشف عن البلاغة الخاصّة؛ لأنّ التّفاوت في كلام النّاس خصوصيةٌ من خصائص نفوسهم،

([1]) طبع ونشر مكتبة وهبة بمصر المحروسة.

وحالٌ من أحوال بشريتهم.وهذه النّفوس تعتورها عوارض القوة والضّعف،والإحكام والاختلال.وذلك كائنٌ فيها لا محالة، وفقدانه في القرآن دليلُ مغايرة طبعه لطبع كلام النّاس، ومغايرة مخرجه لمخرج كلامهم.

ولكنّ الخطابي ذكر أنّ بلاغة القرآن حازتْ من كلِّ قسمٍ من هذه الأقسام حصةً..." (١)

وواضحٌ من هذا الكلام أنّ الدكتور محمد أبو موسى، يذهب إلى القول بعدم التفاوت في البيان القرآني، تأمل قوله: "ولو أنّ الخطابي ذكر أنّ هذا التّفاوت غيرُ كائنٍ في القرآن، لكان أقرب إلى الكشف عن البلاغة الخاصة..." فهو صريحٌ في ذلك.

و مما يُؤكّد ذلك، أنّه عند حديث الخطابي عن عناصر الكلام الثّلاثة:لفظ حامل، ومعنى به قائم ورباط بينها جامع" يقول:" قلنا: إنّ العلم بكلّ هذه الهيئات، وإدراك الفروق بينها، ثم وقوع كلّ صورةٍ منها موقعها، ليس في مقدور شاعرٍ، والشّعر بين أيدينا، يُؤكد لنا أنّه ليس هناك شاعرٌ، سلم كلّ شعره من فسادٍ في الصياغة، أو غموضٍ في التّصوير، وهذه حقيقةٌ اتّفق عليها أهل الأدب، يقول الآمدي وهو باحثٌ دقيق

---

(١) الإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى ص ٤٦.

الحسّ:" إنّ فحول الشّعراء – الذين غلبوا عليه، وافتتحوا معانيه، وصاروا قُدوةً فيه، واتّبعهم الشّعراء، واحتذَوْا على حَذْوهم، وبَنَوْا على أصولهم – ما عُصموا من الزّلل، ولا سلموا من الغلط".(١)

ويقول على بن عبد العزيز وهو في الصّدْر من المتقدمين في دراسة الأدب والشّعر:"لكنّا لم نجد شاعراً شمل الإحسانُ والإصابةُ والتّنقيحُ والإجادةُ شِعْرَه أجمع، بل قلّما تجد ذلك في القصيدة الواحدة، والخطبة الفردة؛ ولابدّ لكلّ صانع من فَتْرَةٍ، والخاطرُ لا تستمرُّ به الأوقاتُ على حالٍ؛ ولا يَدُومُ في الأحوال على نَهْج".(٢)

أما نظوم القرآن وهيئات جمله، فلم يعثر الدارسون فيها على شيءٍ، يمكن أن يُقال فيه: إنّ غيره كان أوفى منه بهذا المعنى وأدق في استيعابه. (٣)

فشيخنا يرى أنّ التّفاوت سمةٌ من سمات الكلام البشري، لا ينجو منه فرسان البيان، وقد نقل عن الآمدي والجرجاني– وهما من خيرة النّقدة–ما يُؤيّد ذلك ويُعضده، أما

---

(١) الموازنة للآمدي تحقيق السيد أحمد صقر. ط. دار المعارف بالقاهرة. ط. رابعة.ج١ص٥١.

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي ص ٤١٥.

(٣) الإعجاز البلاغي ص ٥٣.

القرآن الكريم فلم يعثر الدارسون فيه على شيءٍ يمكن أن يُقال:إنّ غيره أوفى منه وأدق، فهو على درجةٍ واحدةٍ من إجادة البيان،وذلك لأنّه من عند الله.

وأخيراً يقول :" والإمام الغزالي يُفسِّر نفي الاختلاف عن القرآن، وأنّه وجهٌ من وجوه إعجازه، وأنّه دليلٌ على عدم صدوره عن نفسٍ بشريةٍ؛ بما يَقْرُب من هذا المعنى،الذي بسطته من كلام الخطابي؛ لأنّه ناظرٌ إلى حال النّفس وما يعتورها من أحوال الفتور والنّشاط، والقوّة والضّعف، وأنّ هذا لم ينعكس منه شيءٌ على القرآن، ولم يُعْهَدْ في تاريخ الإنسان، أنْ تكلّم على امتداد ثلاثٍ وعشرين سنة من غير أن يقع في كلامه اختلافٌ، في درجته البيانية، واضطرابٌ واهتزازٌ في قيمه التي يَرْشُد النّاس بها إلى سبيل الله، قال في معاني قوله تعالى:﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾.... [1]

ب- عند حديثه عن الباقلاني

ذكر شيخنا في مستهل حديثه عن وجوه الإعجاز عند الباقلاني أن دراسة الباقلاني في هذا الأصل المهم تدور على محوريْن أساسين:

([1]) النساء/٨٢. الإعجاز البلاغي ص ٥٥.

المحور الأوّل: هو تحديد العناصر البلاغية الخاصّة بالقرآن، والتي لا يُوجد شيءٌ منها في كلام النّاس؛ لأنّها ليست من طبائع النّاس، وليست في طاقتهم، فأدب الأديب صورته النّفسية والعقلية تُمثّل فيه قوّة نفسه وضعفها، واستشرافها ونقصانها، فالكاتب والشّاعر والمتكلّم، يُودع نفسه بكل شياتها في شعره، وأدبه.

دارت دراسة الباقلاني في هذا المحور حول الكشف عن فقدان هذه الأنفاس الإنسانية في القرآن ، وأنّ الذي فيه ليس من بلاغة هذه النّفس؛ لأنّ بلاغتها مهما تفوّقت وتميّزت لا تنفك عنها أحوال الفتور والانقطاع؛ لأنّها ضربة لازب لهذه النفس.

المحور الثّاني: هو إمعان النّظر في الآيات القرآنية، ومدارستها كلمةً كلمةً، وجملةً جملةً، وفِقْرةً فِقْرةً، وسورةً سورةً، وتوسّم كلَّ ذلك توسماً واعياً ، يحاول أن يستخرج ما وراءها من أحوال، وغوامض، وأسرار.

وقد جلّى شيخنا المحوريْن، وكان ممّا ذكره في المحور الأوّل، وهو من صميم قضيتنا،كلامه عن الوجه الثّاني من وجوه الإعجاز- عند الباقلاني- وهو ناظرٌ أيضاً إلى جملة القرآن، ولكن من حيث هو وصفٌ لما جاء عليه من رفيع البلاغة، وبديع المعاني، لا يتخلّله فتورٌ، مع كثرة أغراضه وتنوعها.

يقول :" وإذا كنّا نقع على الكلمة البديعة، والشّذرة الوضيئة في كلام أهل الطّبع، فإنّ ذلك لا يطول، وربما لا يتجاوز جملة أو جملتين، نقع عليهما في الخُطبة أو الرِّسالة، أو القصيدة، وكأنّها هي بيضة ما هي فيه.....وليس هناك من قام كلامه كلُّه على هذه الشَّذرات، وبنى شعره كلّه من هاتيك الدُّرر المختارة، ليس هناك قصيدةٌ ولا رسالةٌ ولا خطبةٌ كلُّها من الغريب النّادر والطّريف البديع..والقرآن كلُّه من ذلك، وهو بهذا خارجٌ عن مألوف الكلام وفائتٌ لقدرات البشر." [1]

ثم يقول :" وإذا كان الباقلاني لم يُحدّد الفصاحة والغرابة، واللّطف والتّناسب في أوصاف القرآن؛ فقد أفلح في إبانته عن استحالة صدور هذا القرآن عن النّفس البشرية؛ لأنّ قصاراها في هذا الباب هو الكلمات المعدودة، وأنّه ليس من طبعها أن يصدر عنها كلامٌ في هذا الطُّول، وعلى هذا الحدّ من البراعة، وتاريخ الفحول من أهل الطَّبع شاهدٌ ذلك، فليس هناك قريحةٌ لا تفيض إلا بالبالغ المختار.

وكلام الباقلاني هنا وفي كثيرٍ ممّا سيقوله مقتبسٌ من القرآن؛ حيث أشار إلى طبيعة النّفس وما يصدر عنها، وأنّ الفتور والاختلال والانقطاع كلّ ذلك مغروسٌ في فطرتها،

([1]) الإعجاز البلاغي ص ٢٠٣.

ومنعكسٌ فيما يصدر عنها ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [1]

ولهذا نقول: إنّ كلام الباقلاني، وإنْ كان يبدو وكأنّه ينتهي عند نفي العيب عن القرآن، فهو في جوهره متجهٌ إلى نفي خصائص النّفس البشرية عن مصدر القرآن، ولك أن تقول بعبارةٍ أخرى متجهٌ إلى نفي خصائص بلاغة النّفس البشرية عن القرآن". [2]

وقد وقف أيضاً في الوجه السّابع والعاشر، وبيّن فيهما استواء البيان القرآني على مدرجةٍ واحدةٍ، وضربٍ واحدٍ من حيث الفصاحة والسّهولة، وعذوبة الألفاظ وقربها وسخاؤها، ووضوحها، وتساوق النّغم وتتابعه على النّظام الذي تراه في المصحف لا يطرد على هذا الحدّ في كلام البشر ... [3]

والكلام وإنْ كان للباقلاني إلا أنّ شيخنا – وهذا شأنه– يُمطره سُبُحات من فيض علمه وفكره فيحيله شيئاً آخر؛ ومن ثمّ يحق لنا أن نقول إنّ هذا– أيضاً– هو رأي الشّيخ.

---

(١) النساء/٨٢.

(٢) الإعجاز البلاغي ص ٢٠٤.

(٣) المرجع نفسه٢٣٧ .

ج- عند حديثه عن ابن حزم

وقف شيخنا مع ابن حزم، وكان حجاج ابن حزم متجهاً إلى تضعيف القول بتفوّق القرآن في النّظم والبلاغة، يحاول أن يحتجّ على أنّ المعجز في النّظم الكريم، ليس هو بلاغته الفائتة وإنمّا هو المنع" الصَّرْفة"،فردّ عليه شيخنا، ونقض كلامه؛ لأنّ ما ذكره ابن حزم كان فريداً في بابه.

وممّا ذكره شيخنا وله علاقة بقضيتنا، هو وقوفه مع ابن حزم، حينما ذكر قوله تعالى:﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ [1] وقال:"إنّه ليس فيه من النّظم ما يُعجز؛ لأنّها سرد أسماءٍ، وسرد الأسماء ليس مما يتوفر فيه خصائص نظم...". [2]

فقد ذكر شيخنا أبو موسى، أنّ العلماء قد عرضوا لهذا، وذكروا آياتٍ تُشْبِه هذه الآية منها قوله تعالى:﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأخ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ

([1]) النساء/١٦٣.

([2]) الفصل ج٣ ص ٢٧.

الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾[1]

وقالوا: إنّ هذا ليس من القبيل الذي يظهر فيه براعة النّظم، على الحدّ الذي نراها في مثل قوله تعالى:﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ﴾

وقد ردّ عليهم بأنّ طبيعة المعنى هنا غير طبيعة المعنى هناك ، وأنّ البلاغة ليست في تكلُّف البراعة والتفنُّن، فيما لا يقتضي الحال فيه براعة ولا تفنناً، وأنّ كلّ كلمةٍ تقع في القرآن الكريم، إنّما تقع على صورتها العُلْيَا التي لا يُمكن أن تقع على صورةٍ أفضل منها، ثم إنّ إعجاز القرآن لا يَكْمُن في كثرة الألوان البلاغية، وإنّما قد يكون في دقائق أخرى تخلف خصوصيات النّظم، كالتّرتيب ونحوه. [2]

و من هذه الوقفات الثّلاث لشيخنا الدكتور محمد أبو موسى يتجلّى لنا أنّه- أطال الله في عمره- ممن يذهب إلى القول باستواء بلاغة القرآن، ومن ثمّ فإن قوله في كتابه "دراسة في البلاغة والشّعر" – وهو يتكلم عن أمثال سورة

([1]) النساء/٢٣

([2]) راجع: إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٠٥. والإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى ص ٣٨٠.

النّور – وقد تعرّض لبعض أمثال سورة البقرة [1]–:" والمَثل الثّاني في سورة البقرة أبلغ من المَثل الأوّل – كما قال الزمخشري– ولا حرجَ علينا حين نُقول :إنّ في القرآن بليغٌ وأبلغ ؛لأنّ البليغ قد بلغ حدّ الإعجاز، وإنْ كان البعض يرى أنّ الاختلاف في ظهور البلاغة؛ يعني أنّها في بعض الآيات أظهر منها في البعض الآخر، أمّا البلاغة فهي في الكلّ على حدٍّ واحدٍ لا تفاوت فيها، وفي المسألة كلامٌ آخر، والمهم أنّنا نرى في المثل الثّاني مزيداً من التنوّع والغزارة في العناصر والأحداث والمخاوف والأهوال، وترى المثل بهذا أفسح مدى من المثل الأوّل".[2]

نستطيع أن نقول عنه إنّ كلمة" أبلغ" فيه مأخوذةٌ من المبالغة، وليس من البلاغة خصوصاً وأن قوله:" والمهم أنّنا نرى في المثل الثّاني مزيداً من التنوّع والغزارة في العناصر والأحداث والمخاوف والأهوال..." يُوحي بذلك ويُؤيده ، كماأنّ عبارة الزمخشري تُوحي بذلك، تأمّل قوله:" فإن قُلْتَ : أيُّ

([1])في قوله تعالى :﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ۞ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ۞ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ۞ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٧– ٢٠

([2]) دراسة في البلاغة والشعر للدكتور محمد أبو موسى ص ٣٧ ط مكتبة وهبة ط أولى ١٤١١هـ= ١٩٩١م.

التَّمثيلين أبلغ ؟ قُلْتُ الثّاني؛ لأنّه أدلّ على فرط الحيرة، وشدة الأمر، وفظاعته؛ ولذلك أُخِّرَ، وهم يتدرَّجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ" [1]، ودقق في قوله : يتدرّجون من الأهون إلى الأغلظ؛ فهو يُؤكد حمل أبلغ على المبالغة، ثم إنّ الزمخشري وهو يحاول أنْ يكشف عن جمال المثل الثّاني، ذكر أنّ فيه مبالغات من جهة التّركيب والبناء والتّنكير...

أما المثلان من ناحية البلاغة، فكلٌّ منهما في موطنه قد بلغ الحدّ الأعلى من البلاغة، ولو نزعتَ من أحدهما كلمة واحدةً، ثم أدرتَ لسانَ العرب كلّه؛ لتبحث عن كلمةٍ أخرى تسدّ مسدها، فلن تجد .

٧- الدّكتور محمود توفيق

ويذهب شيخنا الدكتور محمود توفيق[2]إلى استواء البيان القرآني وعدم تفاوته وتفاضله، وقد تجلّى رأيه في كتابين من كُتُبه: الأوّل: "المدخل إلى علم بلاغة العرب"والثّاني"العَزْف على أنوار الذّكر.معالم الطّريق إلى فقه

([1]) الكشاف للزمخشري .دار المعرفة. بيروت. لبنان. ج ١ ص ٤١.

([2]) وهو من أنجب تلاميذ الشّيخ محمد أبو موسى ، يسير على دربه ويدعو بدعوته، وهو أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنّقد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر فرع شبين الكوم، والأستاذ بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.وهو صاحب الفضل عليّ في بحث هذه القضية، حيث حفزني لبحثها وشجعني على ذلك.

المعنى القرآني في سياق السّورة" ، وهو في كتابه الأوّل قد عقد مبحثاً في آخره عن "مذهب أهل العلم في تفاوت البيان القرآني"، وقد بيّن فيه المعنى المقصود من التّفاوت، وذكر كلام العلماء في وجوه التّفاوت والتّفاضل في القرآن الكريم، ثم ذكر آراءهم في تفاوت القرآن من ناحية البلاغة، وانتهى إلى أنّ البلاغة القرآنية لا تتفاوت، وإنّما هي على درجة سواء، ذلك "أنّ بلاغة القرآن الكريم، هي مناط الإعجاز، ولو قيل فيها بالتّفاوت؛ لأدّى ذلك إلى أنّ هنالك عجزاً في بلوغ ما دنا ونزل، في مستوى بلاغته، وهذا لا يليق بالقول بأنّ مناط إعجازه بلاغته، إذا ماكان مناط إعجازه بلاغته، فإنّ الأولى أن يكون هذا المناط واحداً في درجته ومرتبته" [1]

وفي كتابه الثّاني يقول- عند حديثه عن فِقْه وَحْدَة سياق السُّورة ومقصودها الأعظم-:" ولهذا لا ترى تفاوتاً بين بلاغة القرآن الكريم المعجزة في وجهٍ من وجوهها:"لا ترى تفاوتاً بين أيِّ ضربٍ من ضروب آياته التّشريعية أو التّثقيفية، ولا بين أيّ سورةٍ وسورة أخرى، فجميع جمله وآياته وسُوَره على درجةٍ سواء، في بلاغتها المعجزة ذلك أنَّ الإعجاز البلاغيّ للجملة أو الآية أو السُّورةِ، ليس في كثرة ما اشتملت عليه من خصائص التَّراكيب، وصنوف التّصوير وضروب التَّحْبير : ليست الآية التي حوت عشرات من خصائص التّركيب والتّصوير، بأشدّ إعجازاً في بلاغتها

([1]) المدخل إلى علم بلاغة العربية(على شبكة المعلومات) ص ٩٨- ١١١.

من الآية التي حوت ثلاثاً من ذلك ، وليست سورة "البقرة " بأشدَّ إعجازاً من سورة " الكوثر "، فإنَّ إعجازه البلاغيَّ ليس بكثرة ما حوى من خصائص التّركيب، وضروب التّصوير والتَّحبير ، ولكن بكيفية تركيب المعنى القرآنيّ بناءً وتصويرًا وتحبيرًا في السُّورة القرآنيَّة جميعها، ثُمَّ في القرآن الكريم كلّه، ففي هذا يكتمل سلطان الرُّوح التّركيبيّ المنبثق من المقصد، والمغزى الكليّ الرئيسيّ لكلِّ سورة، وبغير اكتمال هذا السُّلطان لا يكتمل لبلاغة القرآن الكريم إعجازُه".[1]

رابعاً: الأُصوليُّون والفقهاء

ومن الطّوائف التي أدْلَت بدَلْوها في هذه القضية، علماء الأُصول والفقه؛ فمنهم من ذهب إلى استواء البيان القرآني وعدم تفاوته، وشدّد النّكير على من يقول بالتّفاوُت والتفاضُل، ومن هؤلاء:

١- الغزالي (٥٠٥هـ)

سُئِل الغزالي[2]عن معنى قوله تعالى:﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [1] فأجاب بأنّه ليس المراد نفي

([1]) العزف على أنوار الذكر ط أولى ١٤٢٤هـ ص ٧٣.

([2]) هو محمد بن محمد بن محمد. الإمام، حجة الإسلام، زين الدين، أبو حامد الطُوسي الغزالي، تفقّه على إمام الحرمَيْن، وبرع في علوم كثيرة ، وله مصنفاتٌ منتشرةٌ في فنون متعددة؛ منها :كتاب إحياء

اختلاف النّاس فيه، بل نفى الاختلاف عن ذات القرآن، وبيّن أنّ الاختلافُ المنفي عن القرآن لفظٌ مشتركٌ بين معان، منها: الاختلاف في الفصاحة ، يُقال: هذا كلام مختلِفٌ أي لا يُشْبِه أولُه آخِرَه في الفصاحة، وقد ذكر أن كلام الله مُنَزَّهٌ عن هذا، لأنّه على منهاج واحدٍ في النَّظم، مُناسبٌ أولُه آخِرَه، وعلى درجةٍ واحدةٍ في غاية الفصاحة، فليس يَشْتَمِلُ على الغثِّ والسَّمين، وكلامُ الآدمين يتطرَّقُ إليه هذا الاختلاف ؛إذ تراه مختلفاً في دَرَجات الفصاحة، بل في أصل الفصاحة؛ حيث يشتملَ على الغثّ والسّمين، فلا تَتَساوى رسالتان ولا قصيدتان، بل تَشْتَمِلُ قصيدةٌ على أبياتٍ فصيحةٍ وأبياتٍ سخيفةٍ، ولا ينفكُ كلامُ آدميّ عن هذا ؛ لأنّ منشأه اختلافُ الأغراض والأحوال، والإنسان تختلف أحواله؛ فتساعده الفصاحة عند انبساط الطّبع وفرحه، وتتعذَّر عليه عند الانقباض، ، فلا يُصادف إنسانٌ يتكلم في ثلاث وعشرين سنة- وهي مدّة نزول القرآن-؛ فيتكلّم على غرضٍ واحدٍ، ومنهاج واحدٍ، ولقد كان النبيّ – صلى الله عليه وسلم – بشراً

علوم الدين في التّصوّف، و المستصفى في أصول الفقه، والمنخول وإلجام العوام في علم الكلام ،والردّ على الباطنية ومقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، وجواهر القرآن وشرح الأسماء الحسنى، وياقوت التّأويل في تفسير القرآن وغيرها الكثير ، تُوفي رحمه الله في جمادى الآخرة سنة ٥٠٥هـ ودفن بطُوس.راجع البداية والنهاية ج١٢ص ٦٧٤.وطبقات الشافعية ج١ص ٢٩٣.وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج٦ص ١٩١.وطبقات المفسرين للداودي ج١ ص١٥٢. وطبقات الفقهاء الشافعيةج١ ص٢٤٩. والعبر في خبر من غبر ج٤ص١٠.ونزهة الألباب والألقاب ج١ ص١٩٧.والمنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور ج١ ص٧٦.

(١) النساء /٨٢.

تختلف أحواله، فلو كان هذا كلامُه، أو كلام غيره من البَشَر؛ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.[1]

فهو –رحمه الله– في جوابه يُفسّر الاختلاف المنفي عن القرآن بأنّه تفاضل البيان القرآني في فصاحته وبلاغته، ويعتبر ذلك وجهاً من وجوه إعجازه،كما يعتبره دليلاً على الألوهية، وهو بهذا يختلف عن البيان البشري، الذي يتسم بالتفاوت، وتفاوته دليلٌ على صدوره عن نفس بشرية؛"لأنّه ناظرٌ إلى حال النّفس، وما يعتورها من أحوال الفتور والنّشاط، والقوّة والضَّعف، وأنّ هذا لم ينعكس منه شيءٌ على القرآن، ولم يعهد في تاريخ الإنسان أن تكلم على امتداد ثلاث وعشرين سنة من غير أن يقع في كلامه اختلاف في درجته البيانية، واضطراب واهتزاز في قيمه التي يرشد الناس بها إلى سبيل الله. [2]

فالتّفاوت عند الغزالي عيبٌ يجب أن نُنزّهَ عنه كلام الله سبحانه، تأمّل قوله:" وكلام الله منزَّهٌ عن هذه الاختلافات..." ،وكأنّه يردّ بهذا على العلماء الذين يقولون بتفاضل البيان القرآني،ويعتبرون ذلك من السَيْر على سَنَن العرب في كلامهم.

ومما يجب التّنبيه عليه هنا، هو أنّ الغزالي إذا كان قد رفض تفاضُل البيان القرآني باعتبار فصاحته وبلاغته، فإنّه

([1]) راجع: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٤ ص ١٠٠٩ .

([2]) راجع :الإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى ص ٥٥.

ممن يرى بتفاضُل البيان القرآني باعتبار المعنى المتحدَّث عنه.وقد سبق تحرير ذلك في التّمهيد.

كما أنبّه أيضاً على أنّ الغزالي – رحمه الله– فسّر الاختلاف المنفي عن القرآن، بأنّه الاختلاف في درجات الفصاحة وفي أصلها.

٢– شمس الدين الخوبي[١](٦٣٧هـ)

وقال القاضي شمس الدِّين الخوبي :كلام الله أبلغ من كلام المخلوقين.وهل يجوز أن يُقال بعض كلامه أبلغ من بعض، جوّزه بعضهم لقصور نظرهم.

وينبغي أن يُعلم أنّ معنى قول القائل: هذا الكلامُ أبلغُ من هذا الكلام، أنّ هذا في موضعه له حسن ولطف، وذاك في موضعه له حسن ولطف، وهذا الحسن في موضعه، أكمل من ذاك في موضعه؛ فإنّ مَنْ قال إنّ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٢] أبلغُ

---

(١) هو أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى المهلبي، قاضي القضاة، شمس الدين، أبو العباس، الخوبي ،كان فقيهاً إماماً مناظراً، خبيراً بعلم الكلام، أستاذاً في الطِّب والحكمة، ديِّنًا كثير الصّلاة والصيام، له مصنفات في الأصول والنّحو والعروض والطّب، تُوفي في شعبان سنة٦٣٧هـ .راجع: طبقات الشافعية للسيوطي ج٢ ص ٧١.

(٢) الإخلاص/١.

من ﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ ﴾ [1] جعل المقابلة بين ذكر الله وذكر أبي لهب، وبين التّوحيد والدُّعاء على الكافرين، وذلك غير صحيح بل ينبغي أن يُقال:﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ ﴾ دعاء عليه بالخسران، فهل تُوجد عبارةٌ للدُّعاء بالخُسْران أحسنُ من هذه[أي في سياقها]؟

وكذلك في﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أحَدٌ﴾ لا تُوجد عبارةٌ تدلُّ على الوحدانية أبلغُ منها[أي في سياقها].فالعالم إذا نظر إلى﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، في باب الدُّعاء والخُسْران ،ونظر إلى﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أحَدٌ﴾، في باب التّوحيد، لا يمكنه أن يقول أحدهما أبلغ من الآخر، وهذا القيد يغفل عنه بعض من لا يكون عنده علم البيان" [2]

فالخوبي- عليه رحمة الله- يرفض القول بتفاوت بلاغة القرآن، وينسبه إلى الأقليّة، ويصف مَنْ يقول به بقصور النّظر؛ وذلك لأنّ معنى قول القائل :هذا الكلام أبلغ من ذاك، أنّه أكمل منه في موضعه، وهذا لا يصح؛ لأنّ شرط الموازنة الصحيحة أن يتّحد المعنى في الموطنين المُوَازَن بينهما؛ و قد تطرّق الخوبي إلى موازنةٍ أجراها

([1]) المسد/١.

([2])البرهان في علوم القرآن ج١/ص٤٤٠.

بعض العلماء؛ إذ قالوا: إنّ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] أبلغُ من ﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ ﴾ [2] واعتمدوا في هذا الحكم على المقابلة بين ذكر الله وذكر أبي لهب، وبين التّوحيد والدعاء على الكافرين؛ فبيّن لهم أنّ هذه الموازنة غير صحيحة ؛لاختلاف المعنى المُتحدَّث عنه في السُّورتين، فهذه في الدعاء على الكافرين بالخُسْرَان، وتلك في توحيد الله.ثم بيّن لهم أنّ الموازنة الصحيحة تقتضي أنّ ننظر في قوله تعالى: :﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ ﴾ فهل تُوجد عبارة للدعاء بالخسران – في هذا السياق– أحسنُ من هذه؟!، وكذلك ننظر في قوله تعالى﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فهل تُوجد عبارةٌ تدلُّ على الوحدانية– في هذا السياق– أبلغ منها ؟!

أما أنّ نوازن بين كلامين مختلفين في المعنى، ونقول هذا أبلغ من ذاك، فهذا لا يجوز؛ لاختلاف المعنى فيهما، و قد ذكر أنّ هذا القيد يغفل عنه بعض من لا دراية له بعلم البيان، وكأنّ الخوبي – رحمه الله– وأثابه– يُعرّض ببعض العلماء، الذين أجازوا تفاوت بيان القرآن، باعتبار المعنى المتحدَّث عنه ، وقالوا بأنّ كلام الله في الله، أفضل من كلام الله في خلقه، وقد استشهدوا بالسُّورتين.

والخوبي بهذا الكلام، لا يقصد أنّ يقول: إنّ قوله تعالى﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، أبلغ من كلّ آيات التوحيد، في القرآن الكريم، وإن قوله:﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ ،﴾ أبلغ من كلّ آيات الدعاء بالخسران،

([1]) الإخلاص/١.

([2]) المسد/١.

وإنمّا يريد أن يُقرّر أنّ الموازنة الصحيحة، ينبغي أن تكون بين معنيين متفقين،وكأنّه يريد أن يهدم لمن وازن بين السُّورتين، هذه الموازنة من أصلها، دون التسليم بوجود أبلغ منهما، قلتُ هذا لأنّني أظن أنّ الخوبي يعلم جيداً أنّ كلَّ آيةٍ في سياقها أبلغ من غيرها؛ ولذا فقد عقّب شيخنا الدّكتور محمود توفيق، على كلام الخوبي بقوله:" وعلى الرّغم من وجاهة ما قاله" الخوبي"؛ أفيمكن أن يُقال: إن سورة﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أحَدٌ﴾ أبلغ من كلّ آيات التوحيد، في القرآن الكريم، فلو وضعناها بكاملها، موضع أي آية توحيد في سورة أخرى، لما كانت متناسبة مع سياقها؟ ولا أظن أنّ ذلك يُقال.

إنَّ كلَّ آيةٍ في سياقها- على كمال بلاغتها- لا يصلح غيرها في سياقها، ولا تصلح هي في سياق غيرها؛ لأنَّ السِّياق رافدٌ عظيمٌ من روافد بلاغتها، فإذا ما خُلِّي بينها وبين سياقها الجزئي والكُلّي في سورتها، لم يكن لنا أنْ نُبْصر ما كان فيها من جليل بلاغتها وعظيمها، حين كانت في سياقها. (١)

---

(١) المدخل إلى علم بلاغة العربية للدكتور محمود توفيق سعد ص ١٠٢.

المبحث الثّالث:

هَل البيانُ القرآنيُّ مُسْتَوٍ أوْ متفاضِلٌ ؟

وقبل الجواب عن هذا السؤال، الذي يُعتبر نهاية المطاف وغاية البحث، أقف بتجرّد وموضوعية- قدر الإمكان- مع الفريقين- أعنى القائلين بالتّفاضُل والرّافضين له- لدراسة الحُجَج، التي اتكأ عليها كلّ فريق، فيما ذهب إليه، وبعد ذلك أجيب عن هذا السؤال بما يليق بكتاب الله وبما أقتنع به.

وأبدأ بالقائلين بالتّفاضُل فأحاول أنْ أحْصُرَهم على مختلف الطّوائف، وأحْصُرَ حُجَجَهم تمهيداً للحكم لها أو عليها وهم:

١- البلاغيون:

ابن سنان الخفاجي(ت ٤٦٦هـ)

ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)

بهاء الدين السبكي(٧٧٣هـ)

سعد الدين التّفتازاني (٧٩٢هـ)

عبد الحكيم السيالكوتي(ت ١٠٦٧هـ)

ابن يعقوب المغربي(ت ١١١٠هـ)

الشّيخ عبد المتعال الصّعيدي (ت ١٣٨٣هـ= ١٩٦٦م)

٢- المفسرون

أبو نصر القُشَيْري (ت ٥١٤هـ)

البارزيّ (ت ٧٣٨هـ)

٣ - علماء الفقه والأصول

١-الإمام ابن حزم الأندلسيّ الظّاهريّ(ت ٤٥٦هـ)

٢- العزّ بن عبد السّلام (٦٦٠هـ)

٣- صدر الدّين موهوب الجزريّ (ت ٦٦٥هـ)

٤- ابن تيمية(٧٢٨هـ)

فهؤلاء العلماء – حسب علمي- هم الذين قالوا بتفاضُل البيان القرآني في فصاحته و بلاغته؛ وقد تردَّدت أسماؤهم في كتب أهل العلم، منسوباً إليهم القول بالتّفاضُل ،أما الزمخشري (٥٣٨هـ) فقد كان مضطرباً.

حُجَجُهم وأدلتهم

وقد تبيّن لنا من خلال متابعة هذا القول في تراث أهل العلم، أنّه ليس كلٌّ من قال به، قد ذكر حُجَّةً له أو استدلّ عليه ، بل ألقاه كثيرٌ منهم بدون حُجّةٍ و دليلٍ أو حتى توضيح له، وحاول بعضهم أن يُعلّل لجوازه، ويستدلّ على صحته، وأحاول هنا أنْ أجمع هذه الأدلة على صعيدٍ واحدٍ مشفوعةً بأصحابها.

ويأتي ابن سنان الخفاجي في طليعة البلاغيين الذين قالوا بتفاضل البيان القرآني؛ و قد حاول أن يستدلّ على قوله هذا بعدة أدلّةٍ نوجزها فيما يأتي:

١ – إفراد العلماء لمواضع من القرآن يُعجِّبُون منها في البلاغة وحسن التأليف. وذكر ابن سنان خمس آيات، ثم عقّب عليها بقوله:" فلو كانوا يذهبون إلى تساويه – أي القرآن – في الفصاحة – أي البلاغة – لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دون غيرها معنى.

٢– قوله: ليت شعري، أيّ فرق بين أن يخلق الله وجهين أحدهما أحسن وأصبح من الآخر، وبين أن يُحدث كلامين، أحدهما أبلغ وأفصح من الآخر؟ وهل من يفرّق بينهما إلا مقترح؟

٣–وقوله: ليس أحد ممّن ينكر أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض، يمتنع من القطع على أنّ القرآن في لغته، أفصح من التّوراة في لغتها، والإنجيل في لغته، والزّبور في لغته؛ لأنّ تلك الكتب عنده لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة، وإن كان الجميع كلام الله تعالى.

فما المانع من أن يكون بعض كلامه، الذي هو القرآن أفصح من بعض؟ حتى تكون آية منه أفصح من آية، والجميع كلام الله، كما جاز عنده أن يكون القرآن أفصح من الإنجيل وإن كان الجميع كلام الله. وهذا لا يخفى على محصل.

٤- قوله :فإن قيل: الذي يمنع أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض ، القول بأنَّ قدر كل سورة من قصار سور المفصل منه قد خرق العادة في الفصاحة بفصاحته، وكان معجزاً لعلوُّه في الفصاحة ، وما كان خارقا للعادة في الفصاحة لا يكون غيره أفصح منه، قيل: الجواب عن هذا أولًا: أنّ الصّحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأنّ فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصَّرف، وهذا هو المذهب الذي عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم ، وقد سطّر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره، فالسّؤال على هذا المذهب ساقط.

٥- قوله: وعلى التسليم بأن وجه الإعجاز هو الفصاحة لم يمنع أن يكون كلام معجز يخرق العادة بفصاحته، أفصح من كلام معجز يخرق العادة بفصاحته.

فإنّ نبياً لو أظهر الله على يده معجزاً – وهو حمله ألف رَطْل- لم يمنع أن يُظهر على يده أو يد نبيّ غيره معجزاً آخر- وهو حمل ألفيْ رَطْل- فيكون المعجز أنّ أحدهما أعظم من الآخر مع كون كلّ واحد منهما معجزاً.

كما حاول ابن حزم أن يستدلّ على قوله بالتّفاضُل بما يأتي:

١- الآيات التي أفردها العلماء بالحديث عن بلاغة القرآن.

٢- الآيات التي تُبْنَى على سرد الأسماء، فهي ليست في مستوى بلاغة الآيات السّابقة.

٣- الآيات التي حكى الله فيها كلام البشر؛ فهي دون كلام الله بلاغة.

و الدّليل الأوّل: قد ذكره ابن سنان فيما ذكر، و قد قال به ابن حزم أيضاً، ولم أجده عند غيرهما.

و الزمخشري وإن اضطّرب في موقفه إلا أنّ قوله:" كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتنّ الكلام افتناناً" يُوحي بأنّه يُعلّل للقول بالتّفاضُل، فقوله : " ليفتنّ الكلام افتناناً" معناه: تنويع أساليب الكلام وطرقه، أي أنّ القرآن يأتي بالفصيح والأفصح؛ لينوّع بين الأساليب على طريقة كلام العرب؟

و قد ذكر ابن أبي الإصبع المصري أدلته على تفاضُل البيان القرآني أمرين:

أحدهما:أنّ نظم القرآن العزيز، جمع طبقات البلاغة

الثلاث، ليُظهر فضل كلّ طبقةٍ في بابها، وتَبين محكمُ أسبابها، ويُعلم أنّ أدناها بالنسبة إليها، يعلو على أعلى الطبقات، من كلام البلغاء، ويربى عليها.

ثانيهما: أنّ الكلام إذا كان منوّعاً افتَنَّت الأسماع فيه، ولم يلحق النّفوس مللٌ من ألفاظه ومعانيه، وهذا الدليل قد أخذه من الزمخشري.

وصدر الدِّين موهوب الجزري يرى بأنّ القرآن الكريم جاء بالفصيح والأفصح؛ لأنّه تحدّاهم بمعارضته على المعتاد، فلو وقع على غير المعتاد لكان ذلك نَمَطاً غير النَّمَط الذي أراده الله –عز وجلّ في الإعجاز–، وكأنّه يقصد بذلك أنّ القرآن جاء على طريقة كلام العرب .

وعبد الحكيم السيالكوتي حينما أكّد كلام السّعد الذي ذهب فيه إلى تفاضل بلاغة القرآن، حاول أن يُوضّح منشأ هذا التّفاضل، كما حاول أن يستدلّ على جوازه؛ فذكر أنّه مبنيٌّ على أحد أمرين:

الأوّل: أنّ التّفاوُت في البلاغة بين آيات القرآن، مبنيٌّ على تفاوت المقامات بين الآيات كمّاً وكيفاً، وإنْ كان كلٌّ منهما مطابقاً لجميع ما يقتضيه الحال.

الثّاني:أنّ هذا التّفاوت مبنيٌّ على عدم رعاية كلِّ الاعتبارات المناسبة، وعدم رعاية كلّ الاعتبارات المناسبة

ليس لأنّه تعالى غير قادر، بل لحكمةٍ مثل أنْ يكون المخاطب عاجزاً عن فهمه.

فعبد الحكيم يرى أنّ التّفاوت جاء لحكمةٍ مثل أن يكون المخاطب عاجزاً عن فهم رعاية كلّ الاعتبارات التي يقتضيها المقام، و ليس لأنّ الله- تعالى- غير قادرٍ على الوفاء بحق المقام.

هذا كلُّ ما وقعتُ عليه من حُجَج وأدلةٍ للعلماء الذين أجازوا تفاضل بلاغة القرآن الكريم، وقبل تمحيصها، أوجز حُجَجَ الرّافضين للتّفاضُل.

ثانياً: القائلون باستواء البيان القرآني وحُجَجُهم:

تجلّى لنا مما سبق أنّ القائلين باستواء البيان القرآني في فصاحته وبلاغته، هم جمهور أهل العلم، على مختلف الطّوائف؛ ومن ثمّ فإنّ هذه الأسماء التي قالت بالتّفاضُل- أو نُسِبَ إليها ذلك- وإن بدت أمام القارئ كثيرة، لكنّها تعدّ قليلة بالنّسبة للرّافضين لهذا القول؛ وأحاول أن أوجز هنا الحُجَجَ التي اعتمدوا عليها في رفضهم للقول بالتّفاوُت والتفاضُل ، وهي تكمن في أمورٍ ، أهمها:

الأوّل:أنّ في استواء البيان القرآني دليلاً على ربانيّة القرآن الكريم؛ أما التّفاوت فهو دليلٌ على البشرية؛ بل هو وصف لازم لبلاغتها؛ لأنّه نابع من حال النّفس وما يصيبها من

أحوال الفتور والنشاط، والقوة والضعف، والإحكام والاختلال، وخلو القرآن منه يدل على أنّ القرآن الكريم كلام الله الذي لا يتغيّر، والذي لا يُعجزه شيء، وقد حاول كثيرٌ من العلماء التّأكيد على هذا الأمر، قال الثّعلبي- رحمه الله- عند تفسير قوله تعالى"أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً" [1] يعني أفلا يتفكرون في القرآن، فيرون بعضَه يُشْبِه بعضاً،ويُصدّق بعضُه بعضاً، وإنّ أحداً من الخلائق لم يكن يقدر عليه؛ فسيعلمون بذلك أنّه من عند الله؛ إذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، أي تفاوتاً وتناقضاً كثيراً ،و قد نَسَب الثعلبي هذا القول إلى ابن عباس- رضي الله عنهما- و بنى عليه أمراً آخر، هو في غاية الدقة ؛ إذ ذكر أنّ في الآية- بهذا الفهم- دليلاً على أنّ القرآن غير مخلوق ؛ إذ هو معرى عن الإخلاق من كلّ الجهات ولو كان مخلوقاً لكان لا يخلو من اختلاف وتفاوت.[2]

الثاني: أنّ القرآن الكريم معجزٌ، والله قد تحدّى بإعجازه، وإعجازُه- مقروناً بالتّحدي- يقتضي أن يُوضَع كلُّ حرف منه في مكانه اللائق به، الذي لا يكون إلا في الأفق الأسمى من البلاغة، والقول بالتّفاوت يناقض الإعجاز؛ لأنّه

---

(1) النساء/٨٢.

(2) تفسير الثعلبي تحقيق سيد كردي حسن ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط أولى ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م ج ٢ ص ٣٢٤.

يعني أنّ آيةً- مثلاً- قد استوفت كلّ الاعتبارات المناسبة، وأخرى لم تُسْتَوفَ، ومن ثم كانت الأولى أبلغ من الثانية.

وهذا يعني أن تكون الثّانية في المتناول، كما يعني عند البلاغيين أن عدم مراعاة كلّ الاعتبارات التي يقتضيها المقام، معناه عجز المتكلم – تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً – عن الوفاء بحق المقام.

الثّالث:أنّ واقع القرآن الكريم لم يُسعف القائلين بالتّفاوت، ولم يساعدهم عليه؛ إذ لم يؤيدهم بنصوص حقيقية تثبت لهم صحة قولهم؛ ومن ثمّ فلم نجد واحداً- ممن يؤمن بأنّ إعجاز القرآن في بلاغته ويعتد بقوله- منهم قد أتى بجملة فضلاً عن آية أو سورة، وقال هذه الجملة هبط مستواها البلاغي، ثم اقترح لنا بديلاً، وذلك لأنّ القرآن كلّه على درجة واحدة في البلاغة والإعجاز، تستوي فيه سورة الفيل مع سورة البقرة، فكلّ جملة- وكذا الآية والسّورة- في سياقها في أرقى درجات البلاغة، ولا يسدّ غيرها مسدّها، ودع عنك هؤلاء الذين يُوازنون بين سياقين ، ويقولون هذا أبلغ من ذاك، لأنّهم يُهملون أسس الموازنة الصحيحة؛ إذ كان ينبغي عليهم أن يقولوا هذه الجملة أو الآية بليغة، والأبلغ منها أن يقال كيت و كيت، أما أن يُوازنوا بين سياقين مختلفين فهذا فاسدٌ؛ لأن كلّ سياقٍ له كلامٌ يليق به وينسجم معه، فقد يقتضى سياقٌ المبالغة، وقد لا يقتضي سياق آخر المبالغة، ولكلّ سياق

ما يناسبه، فعدم المبالغة في سياقها أبلغ من المبالغة في غير سياقها وهكذا.

الرابع: أنّ هذا القرآن لو كان فيه مَغْمَزٌ واحدٌ- كضعف مستواه البلاغي في بعض الآيات- لتلقّفه الذين تحدّاهم القرآن بأن يأتوا بسورةٍ من مثله، وظلّ يُقرِّعهم ثلاثاً وعشرين سنة، وهم أقدر النّاس على كشف ذلك، لكنّ ذلك لم يكن، بل خارت قواهم، وانبطحوا أمام جلاله، ساجدين لفصاحته وبلاغته.

و بعد عرض حُجَج الفريقين أرى أنّ الأدلة التي اعتمد عليها القائلون بالاستواء - على وجازتها - أقوى من كلّ الحجج التي ذكرها القائلون بالتّفاضُل والتفاوُتِ،كما أنّها أوجه منها، وأشدّ إقناعاً، ومن ثم وقفتْ الكثرةُ الكاثرةُ من العلماء، من مختلف الطوائف، في وجه هذا القول، ترفضه، وتظهر خطورته، وتبيّن عَوَارَهُ، وتُبرز مجافاته لواقع البيان القرآني، وكان من أشدّ النّاس تصلباً في ذلك، علماء الإعجاز، فقد استوقفتهم تلك المقالة، وأفزعتهم غاية الفزع، وحاولوا الردّ عليها بكلّ مستوياتها- أعني التّفاوت في أصل الفصاحة والتّفاوت في درجاتها-، وأثبتوا أنّ القرآن الكريم مستوٍ في فصاحته وبلاغته،كما أكّدوا على مباينة البيان البشري للبيان القرآني، فإذا كان البيان البشري يعلو حيناً ويهبط حيناً، فالبيان القرآني ليس كذلك، وإذا كان كلام النّاس لا يكون مستوياً في كلّ الأغراض - بل يُبدع الإنسان في غرضٍ دون غرضٍ- ، فإنّ القرآن الكريم مبدعٌ في كلّ الأغراض، وإذا كان كلام النّاس

لا يكون على مدرجةٍ واحدةٍ إن طال أو اختلف أو تنقّل، فإنّ كلام الله – جلّ وعلا- تراه على درجةٍ واحدةٍ في الفصاحة والبلاغة، على طوله واختلاف معانيه وتنقُّله بينها؛ وقد وجدنا الإمام الخطابي – عليه رحمة الله- يُؤكد في بداية كتابه النّفيس، على فكرة مغايرة البيان القرآني للبيان البشري، فقد قرّر أنّ ما يجري في هذا لا يجري في ذاك، وما يجوز في هذا لا يجوز في ذاك؛ لأنّ الثّاني كلام البشر، وهم عاجزون عن إدراك كلّ الأحوال وما تقتضيها، والأوّل كلام ربّ البشر وهو – سبحانه- يعلم كلّ الأحوال – جليها وخفيها- وما تقتضيها، ولذا يأتي البيان البشري متفاوتاً، ويأتي البيان القرآني مستوياً، وقد ردّ الخطابي على كلّ المطاعن التي طعن بها الطاعنون على القرآن الكريم ، وزعموا فيها أنّ بعض الكلمات القرآنية ليست واقعة موقعاً أمكن، كما أنّ بعض الصياغات ليست ممّا يقع في جيد الكلام ، وهذا الزعم يُوهم بأنّ القرآن متفاوتٌ في فصاحته ؛ ولذا فقد تصدّى الخطابي له وبيّن خطأه و جلّى وجه الصّواب والجمال فيما زعموا.

والباقلاني –عليه رحمة الله- يبدو أنّ القول بتفاوت البيان القرآني قد أفزعه، ومن ثمّ أكّد على فكرة استواء البيان القرآني وبنى كتابه "إعجاز القرآن "على مباينة البيان البشري للبيان القرآني، ومن هذه المباينة استواء البيان القرآني في فصاحته وبلاغته، وتفاوت البيان البشري، وقد حاول الباقلاني

أن يُؤكّد القول باستواء بلاغة القرآن على الرّغم من وجود أسباب التّفاوت فيه.

والرّافعي و الشّيخ دراز قد أفادا مما ذكره الباقلاني بهذا الصدد، ومن ثمّ قرّرا أنّ القرآن الكريم معجزٌ في كلّ شيءٍ؛ وإعجازه مستمرٌ ومستوٍ، وإلى هذا أيضاً نحا الأستاذ عبد الكريم الخطيب والدكتورة عائشة عبد الرحمن.

ومن اللافت للنظر أنّني لم أجد – حسب علمي– عَالِماً واحداً من علماء الإعجاز قد بهذا القول، ولعل ذلك لما ذكرته سابقاً، من أنّ هذا القول يناقض القول بالإعجاز، الذي يقتضي أن يكون كلُّ حرف فيه موضوعاً بحساب دقيق.

وقد شارك المفسرون علماءَ الإعجاز في عدم القول بالتّفاوت والتفاضل؛ إذ لم يقل به إلا قلةٌ لا يبلغ عددُها عدد أصابع اليد الواحدة، ولعلّ ذلك نابعٌ من تعاملهم المباشر مع القرآن الكريم وبلاغته، وفي تصوري أنّ في هاتين الطائفتين، مع من قال بالاستواء من كلّ الطوائف، الدليلَ القويَّ لقبول القول بالاستواء؛ لأنّ هاتين الطائفتين هما أقرب النّاس إلى بيان القرآن وبلاغته.

الرّد على حُجَج القائلين بالتّفاضُل:

وبعد أن تجلّى لنا قوة حجة القائلين، باستواء البيان القرآني، في فصاحته وبلاغته، يحسن بنا أنّ نردّ على تلك الحُجَج، التي ذكرها القائلون بالتّفاضُل حُجّةً حُجّة، وذلك حتى نمهد للجواب عن السّؤال السّابق؛ بما تستريح له النفس، ويتناسب مع جلال القرآن الكريم.

الدّليل الأوّل: وهو إفراد العلماء لمواضع من القرآن يُعجِّبُون منها في البلاغة وحسن التّأليف. وقد ذكره ابن سنان فيما ذكر، و قال به ابن حزم أيضاً، ولم أجده عند غيرهما. وابن سنان- وكذا ابن حزم- قد غاب عنهما أنّ الإعجاز البلاغي- الذي لا يقولان به - قد يكون ظاهراً في بعض الآيات، وقد يكون دقيقاً في بعضها الآخر؛ لا يدركه إلا أصحاب النّفوس الطّاهرة، والعقول النيرة، والقلوب العامرة، وعلماؤنا الأجلاء حينما يتكلمون عن الإعجاز، أو وجهٍ من وجوه بلاغة القرآن المعجزة، يستشهدون بهذه الآيات لظهور الإعجاز فيها وتجلّيه، وليس لأنّ غيرها لا يُوجد به إعجاز. ومن ثم يسقط الاستدلال بهذا الدّليل.

الدّليل الثّاني: وأما قول ابن سنان: ليت شعري، أيّ فرق بين أن يخلق الله وجهين، أحدهما أحسن وأصبح من

الآخر، وبين أن يُحدث كلامين، أحدهما أبلغ وأفصح من الآخر؟ وهل من يفرّق بينهما إلا مقترح؟

فهذا حجاجٌ عقليٌّ عقيمٌ وقياس فاسد؛ لأنّ الله- جل وعلا- لم يتحدّ بخلق الوجوه كما تحدّى بالقرآن، أضف إلى ذلك أن اختلاف الوجوه في الحسن والقبح، آية من آيات الله في الخلق، وأما تفاضُل البيان القرآني، في فصاحته وبلاغته، فهو عيبٌ ومنقصةٌ تعالى الله عن ذلك.

الدّليل الثّالث: واستدلال ابن سنان الخفاجي على تفاضُل البيان القرآني، بكون القرآن الكريم أفصح من التوراة والإنجيل والزبور، مع كون الجميع كلام الله ، استدلالٌ في غير محله، وما كان ينبغي أن يصدر منه- وهو الأمير الذوّاقة - ، وذلك لأنّ القرآن معجزٌ،وقد تحدّى الله بإعجازه، وهذه الكتب ليست معجزة .

الدّليل الرّابع: وهو لابن سنان أيضاً، يستدلّ فيه على جواز تفاوُت البيان القرآني؛ بكون الإعجاز في الصّرفة وليس في البلاغة، ويعتبر ذلك المذهب الحق، وينسبه إلى أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم.

وهو هنا يعترف بجريمته في حق ذوقه وعلمه، ويستدلّ بدليلٍ فاسدٍ عند أجلّة العلماء، وهو القول بالصّرفة، و الغريبُ العجيبُ أنّه يدّعي أنّ هذا هو المذهب الحق، الذي عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم.

ولستُ أدري أيّ صناعة يقصدها وأيّ علم يريده؟ هل يقصد علم البلاغة ؟ إن كان يقصدها، فإنّه لم يقل بالصّرفة إلا قلة، وهم شواذ، يكفيه الزّمخشري، وهو من أئمة المعتزلة، وعلى الرّغم من هذا يقول بإعجاز القرآن ببلاغته.

الدّليل الخامس: وهو أيضاً لابن سنان يقول فيه: وعلى التّسليم بأنّ وجه الإعجاز هو الفصاحة، لم يمنع أن يكون كلامٌ معجزٌ يخرق العادة بفصاحته، أفصحَ من كلامٍ معجز ٍيخرق العادة بفصاحته.

فإنّ نبياً لو أظهر الله على يده معجزاً – وهو حمله ألف رَطْل– ، لم يمنع أن يُظهر على يده أو يد نبيّ غيره معجزاً آخر– وهو حمل ألفيْ رَطْل–؛ فيكون المعجز أنّ أحدهما أعظم من الآخر، مع كون كلّ واحد منهما معجزاً.

وهو هنا يستمرّ في حجاجه العقليّ العقيم ، الذي يُوحي بأنّه يُريد أن يلوي عنق الحق لأمرٍ ما في نفسه يؤمن به، و من ثمّ فهو يدافع عنه ، ويريد أن يُجمّله، ولو بالباطل، ولعلّ هذا الأمر هو القول بالصّرفة.

فهو يقول لمن يأبى التّفاضُل لأجل بلاغة القرآن المعجزة: ما الذي يمنع ذلك؟ والله قد يُؤيّد نبياً بحمل ألف رطل، ويُؤيّده مرةً أخرى، أو يُؤيّد نبياً آخر، بحمل ألفيْ رطل؛ فيكون المعجز أنّ أحدهم أعظم من الآخر، مع كون كلّ واحد منهما معجزاً.

أقول له التّفاوت فيما ذكرتَه ليس في المعجزة الواحدة ، وإنّما هو بين معجزات ، وهذا لا شيء فيه، فالله جل وعلا يُؤيّد نبياً بشيءٍ، ويؤيده مرّة أخرى بشيءٍ أعظم ممّا سبق، ويُؤيّد نبياً آخر بشيءٍ أعظم مما أيّد به النبيّ الأوّل . فهذا لا شيء فيه. أما تفاوت بلاغة القرآن فهو في إطار المعجزة الواحدة.

الدّليل السّادس: وهو ما استدلّ به ابنُ حزمٍ؛ وقد ذكر فيه آيةً من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى:﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ [1] ؛ ليقول : إنّه ليس فيه من النّظم ما يعجز ؛لأنّها سرد أسماء، وسرد الأسماء ليس ممّا يتوفر فيه خصائص نظم، وإنّما لأنّ الله منع النّاس أن يأتوا بمثله. [2]

فابن حزم يرى بأن الآيات التي تبنى على سرد الأسماء، ليست في مستوى غيرها من البلاغة، ويرى بأنّ إعجازها ليس في بلاغتها، وإنمّا هو في الصَّرفة، وهذه الآيات قد ذكر الباقلاني آيةً منها، على لسان سائلٍ ليردّ على هذا

([1]) النساء م١٦٣.

([2]) ينظر الفصل ج ٣ ص ٢٧.

الزعم ويُفنّده ؛ ولعل ابن حزم قد أفاد من كلام الباقلاني، وإن اختلفت الغاية عندهما، فالباقلاني جاء به ليردّ عليه، وابن حزم استدلّ به على ما يريد.

ويتضح لنا تأثّر ابن حزم بكلام الباقلاني عندما نراجع كلام الباقلاني؛ إذ يقول رحمه الله :" فإنْ قال قائلٌ: فقد نَجِدُ في آياتٍ من القرآن ما يكون نظمُه بخلاف ما وصفتَ، ولا تتميَّز الكلمات بوجه البراعة، وإنمّا تكون البراعةُ عندك منه في مقدارٍ يزيد على الكلمات المفردة، وحدٍّ يتجاوز حدَّ الألفاظ المستندة، وإن كان الأكثر على ما وصفته به ؟

قيل له :نحن نعلم أنّ قوله :﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ ﴾ [1] إلى آخر الآية – ليس من القبيل الذي يمكن إظهار البراعة فيه، وإبانة الفصاحة عليه، وذاك يجري عندنا مَجْرَى ما يُحتاج إلى ذكره من الأسماء والألقاب، فلا يمكن إظهار البلاغة فيه، فطلبها في نحو هذا ضربٌ من الجهالة". [2]

فالباقلاني– عليه رحمة الله – يُقِرُّ بأنّ هناك آياتٍ لا تظهر البلاغة فيها، وهي تلك الآيات القائمة على سرد الأسماء.

---

(١) النساء/٢٣.

(٢) إعجاز القرآن ص ٢٠٧.

لكنّه أشار إلى أنّ عدم ظهور البلاغة، لا يعني عدم وجودها، وإنّما هي كامنةٌ فيها، لكنّها ليست في كثرة الخصوصيات ووفرتها ، وإنّما هي في أمورٍ أخرى، راح يُحَدّدها في قوله عن الآية التي ذكرها: " بل الذي يُعتبر في نحو ذلك تنزيل الخطاب، وظهور الحكمة في التّرتيب والمعنى، وذلك حاصل في هذه الآية – إنْ تأملتَ.ألا ترى أنّه بدأ بذكر الأمّ؛ لعظم حرمتها وإدلائها بنفسها، ومكان بَعْضِيَّتِها فهي أصل لكلّ من يُدْلي بنفسه منهنّ، ولأنّه ليس في ذوات الأنسَاب أقربُ منها.ولما جاء إلى ذوات الأسباب، ألحق بها حُكْمَ الأمّ من الرّضاع؛ لأنّ اللحم ينشره اللبن بما يَغْذُوه، فيتحصّل بذلك أيضاً لها حكم البَعْضِيَّة، فنشر الحُرْمَة بهذا المعنى وألحقها بالوالدة .وذكَرَ الأخوات من الرّضاعة، فنبَّه بها على كل من يُدْلي بغيرها، وجعلها تِلْوَ الأمّ من الرّضاع .والكلام في إظهار حِكَم هذه الآية وفوائدها يطول...فلم تنفكّ هذه الآية من الحكم التي تخْلُفُ حكمة الإعجاز في النّظم والتّأليف، والفائدة التي تنوب مناب العُدُول عن البراعة في وجه التّرْصِيفِ. فقد علم السائل أنّه لم يأت بشيءٍ، ولم يهتد للأغراض في دلالات الكلام ،وفوائده ومتصرفاته، وفنونه ومتوجهاته"[1].

فقد كشف – رحمه الله – عن بلاغة هذه الآية، وبيّن لنا أنّ بلاغتها ليست في كثرة الخصوصيات ووفرتها، وإنّما

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ٢٠٧.

هي في أمورٍ أخرى تخلفها؛ أوْجَزَهَا في تنزل الخطاب، وظهور الحكمة في التّرتيب والمعنى،كما بيّن مباينة البيان القرآني للبيان البشري في ذكر الأسماء؛ إذ وضّح أنّ البيان البشري قد يتفاوت فيحسن في موضع ويقبح في آخر، أما البيان القرآني فلا يتفاوت.

إذاً فالبلاغة ليست في وفرة الخصوصيات، إنّما هي في مطابقة الكلام لمقامه، وانسجامه مع سياقه، ووفائه بمعناه، و أدائه لغرضه، وحسن نظمه، وفصاحة ألفاظه، ودقة معانيه، وصحتها، و ترتيبها، وغيرها.

وانظر إلى هاتين الآتين السابقتين في ضوء ذلك، وسوف يطلُّ عليك الإعجاز من عليائه، وقد تُدرك منه سرّاً وتغيب عنك أسرار، وغيبة هذه الأسرار لا تعني عدم وجودها، إنّما هي كامنةٌ فيه، تتجلَّى بقدَر وحسابٍ.

الدّليل السّابع: وهو لابن حزم أيضاً قد ذكر فيه أمراً آخر، وحاول أن يحتجّ به على أنّ المعجز في النّظم، ليس بلاغته الفائتة، التي تبهر وتقهر الأطماع، وإنّما هو المنع، وخلاصة هذا الوجه أنّ في القرآن حكايات عن الأقوام ومحاورات بينهم وبين أنبيائهم. و ابن حزم يرى أنّ هذا الكلام الذي حكاه الحق- عزوجل- عن البشر ليس في مستوى كلام الله سبحانه ، فهو أدنى منه في البلاغة ، لكن لمّا حكاه الله صيّره معجزاً، وإعجازه ليس في بلاغته، وإنّما في منع الخلق عن المماثلة.

وبهذا فإنّ ابن حزم يرى نمطين آخرين من القرآن:أحدهما أبلغ من الآخر؛ فكلام الله أبلغ من الكلام الذي حكاه. وهذا الكلام الذي ذكره ابنُ حزمٍ –كما ذكر شيخنا الدكتور محمد أبو موسى– غريبٌ وفاسدٌ ومردودٌ؛ لأنّ المسلمين أجمعوا على أنّ هذا مما يحكيه الله عنهم، ويقوله على ألسنتهم، وأنّ اللّفظ والنّظم فيه ليس لهم، و حال ذلك كحال ما يرويه القرآن عن آدم، وولديه قابيل وهابيل، وكذلك مقالة نوح ولوط، وما يشبه ذلك من تلك المقاولات، التي كانت قبل أن تتفجر ينابيع العربية في لسان أبينا إسماعيل صلوات الله عليه وعلى أبيه وولده،كلّ ذلك حكاية معانٍ، واللّفظ والنّظم فيها كلام الله، وهذا ما انعقد عليه الإجماع فليس هذا الذي ذكره ابن حزم كلامهم صيّره الله كلامه، وإنمّا هو كلامه القديم الذي جرى به العلم قبل أن يخلق أبانا بشراً من طين ..." [1]

وقد ذكر ابن جني في الخاطريات:" أنّ جميع ما ورد في القرآن، حكاية عن غير أهل اللّسان، من القرون الخالية، إنّما هو معربٌ عن معانيهم، وليس بحقيقة ألفاظهم؛ ولهذا لا يشكّ في أنّ قوله تعالى :﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن

---

(1) الإعجاز البلاغي ص ٣٧٨.

يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾[1] أنّ هذه الفصاحة لم تَجْرِ على لغة العَجَم. [2]

وبهذا ينهدم أصل ما استدلّ به ابنُ حزمٍ، وإذا انهدم الأصل، انهدم ما بُنِيَ عليه، و هو تفاضل بلاغة القرآن وتفاوتها.

الدّليل الثّامن:وهو ما أشار إليه الزمخشري- وأخذه عنه ابن أبي الإصبع- في قوله: يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتنّ الكلام افتناناً، وكأنّه يقول :إنّ القرآن يأتي بالفصيح والأفصح والبليغ والأبلغ؛ ليُنوّع بين طُرُق الكلام؛ حتى لا يلحق النفوس مللٌ من ألفاظه ومعانيه.

وهذا مردودٌ عليه بأنّ التّفاوت في البلاغة ليس تنويعاً لطُرُق الكلام؛ إنّما هو هبوطٌ بالمستوى البياني، وهذا عيبٌ بينما يكون التنويعُ ميزةً.

الدّليل التّاسع: وهو ثاني دليلين، استدل بهما ابن أبي الإصبع، على تفاضُل البيان القرآني: وخلاصته أنّ نظم القرآن العزيز، جمع طبقات البلاغة الثلاث، ليُظهر فضل كلّ طبقةٍ في بابها، وتَبين محكمُ أسبابها، ويُعلم أنّ أدناها بالنسبة إليها،

([1]) طه /٦٣.

([2]) الخاطريات لابن جني نقلاً عن الإتقان ج٤ص ١٠١٠.

يعلو على أعلى الطبقات، من كلام البلغاء، ويربى عليها.

وهذا قول عجيب، والأعجب منه أن يصدر من ابن أبي الإصبع، وهو البلاغي الأريب، الذي يُدرك أنّ سرَّ جمال القرآن، يكمن في تجاوب نظمه بلاغةً، لا في تدنى مستواه البلاغي؛ ليظهر فضل كلّ طبقةٍ من طبقات الكلام.

الدّليل العاشر: وهو لموهوب الجزري، يذكر فيه أنّ القرآن تحدّاهم بمعارضته على المعتاد، فلو وقع على غير المعتاد؛ لكان ذلك نَمَطاً غير النَّمَط الذي أراده الله -عز وجلّ- في الإعجاز، وكأنّه يقصد بذلك، أنّ القرآن جاء على طريقة كلام العرب، وكلام العرب فيه التّفاوُت، بل هو وصفٌ لازمٌ له .

وهذا مردودٌ، وذلك لأنّ التّفاوت ليس طريقاً من طرائق العرب في الكلام، وإنّما هو عيبٌ من عيوب كلامهم ، ونَفَسٌ من أنفاس بشريتهم، التي تُصاب بالانقطاع والفتور والضّعف.

فكيف يأتي القرآن بعيبٍ من عيوب كلامهم، ثم يتحدّاهم بفصاحته و ببلاغته ؟! أين الإعجاز إذا؟!

الدّليل الحادي عشر: وهو لعبد الحكيم السيالكوتي، ذكر فيه أنّ بلاغة القرآن متفاوتةٌ ، وتفاوتها ليس لعدم قدرة الله سبحانه على الإتيان به في أعلى طبقة من البلاغة، وإنّما لحكمةٍ، مثل أن يكون المخاطبُ عاجزاً عن فهمه.

وهو مَرْدودٌ أيضاً، وذلك لأنّ الغاية من القرآن المخاطب- من الإنس والجن- والله سبحانه قد فصّله لهم تفصيلاً، اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿حم۞ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]

فكيف يعجز المخاطب عن فهمه والله قد أنزله له؟ وكيف يعجز المخاطب عن إدراك بلاغته والله قد تحدّاه بها؟ وإذا عجز عن إدراك بعضه فكيف أدرك الباقي؟ وإذا عجز بعضنا فأين الرّاسخون في العلم؟!!

وبعد أن عرضنا وجهة نظر الفريقين، وأدلتهما، وبيّنا قوتها أو ضعفها.

فهَل القرآنُ الكريمُ مُسْتَوٍ أو مُتَفَاضِلٌ؟

الجواب الذي تستريح له النّفس، ويعمر به القلب، و يمتلأ به اليقين، هو أنّ القرآن الكريم مستوٍ في فصاحته وبلاغته، وليس متفاوتاً ولا متفاضِلاً، تراه كلّه من أوله إلى آخره، على درجةٍ واحدةٍ، في المستوى البياني،"يشبه الآية

---

(١) فصلت/١-٣.

الآية والكلمة الكلمة والحرف الحرف" [1]، ولا يشذّ عن ذلك حرفٌ واحدٌ، وهذا ما ذهب إليه جمهور علماء الأمة من مختلف الطوائف، خصوصاً العلماء الذين كان لهم تعاملٌ مباشرٌ مع القرآن الكريم وبلاغته، مثل علماء الإعجاز وعلماء التّفسير.

والبيان القرآني باستوائه يُباين البيان البشري الذي يتفاوت، وتفاوته أثر من آثار النّفس البشرية، فالأوّل فيه الكمال و الإعجازُ، وهذا فيه النقص و العجز، يقول الباقلاني: "ونظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه، وفي فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه، وفي كل نهج يسلكه، وطريق يأخذ فيه، وباب يتهجم عليه، ووجه يَؤُمُّه، على ما وصفه الله تعالى به – لا يتفاوت ،كما قال :﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[2]. ولا يخرج عن تشابهه وتماثله، كما قال: ﴿قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[3]. وكما قال: ﴿كِتَاباً مُّتَشَابِهاً﴾ ولا يخرج عن إبانته، كما قال:﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[4].

([1]) هذا قول قتادة عن القرآن، ينظر تفسير الثعلبي ج٥ ص ٢٩٨.

([2]) النساء /٨٢.

([3])الزمر/٢٨.

([4]) الشعراء/١٩٥.

وغيره من الكلام كثير التلوّن، دائم التغيّر والتنكُّر، يقف بك على بديعٍ مستحسَنٍ، ويعقبه بقبيحٍ مستهجَنٍ، ويطلع عليك بوجه الحسناء، ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشَّوْهَاء، ويأتيك باللفظة المستنكرَة بين الكلمات التي هي كاللآلئ الزُّهْر.

وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البُهْم، وقد يقع إليك منه الكلام المُثبَّجُ – المضطرب- والنّظم المشوّش والحديث المشوّه . وقد تجد منه ما لا يتناسب ولا يتشابه، ولا يتألّف ولا يتماثل"[1].

وقد تظهر البلاغة لنا في أكثر القرآن، وقد يخفى علينا وجهها في مواطن، وخفاؤها لا يعني عدم وجودها، إنّما هي كامنة فيها، تُطلّ بحسابٍ وبقدرٍ، ولا يدركها إلا أصحاب النّفوس الذكيّة، والأذواق الصّافية، يقول ابن عطية- رحمه الله- :" وكتابُ الله لو نَزعتَ منه لفظةً، ثم أُدير لسانُ العرب، في أن يُوجد أحسنُ منها ،لم يُوجد ،ونحن تَبينُ لنا البراعةُ في أكثره، ويخفى علينا وجهُهَا في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ، في سلامة الذوق، وجودة القريحة، ومَيْز الكلام"[2]

(1) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٠٦.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ج ١ ص ٥٢.

والقول باستواء البيان القرآني في فصاحته وبلاغته هو الذي يتناسب مع جلال القرآن الكريم والقول بإعجازه.

فأمّا تناسبه مع جلال القرآن وعظمته؛ فلأنّه يدل على أنّه نزل من عند الله، و لم يصدر عن نفس بشرية؛ لأنّ أيّ مخلوق لا يستطيع تصوير الحقائق كما صوّرها القرآن بلا اختلافٍ ولا تفاوتٍ في شيءٍ منها،كما أنّ أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله فيما جاء به من فنون القول وألوان العِبَر في أنواع المخلوقات في الأرض أو في السموات، وكان في كلّ ذلك يؤيّد بعضُه بعضاً لا تفاوت فيه، ولا اختلاف بين معانيه[1]؛ لأنّ التّفاوت في الكلام، يكون حالاً من أحوال النّفس، وما يعتورها من أحوال الفتور والنّشاط، والقوة والضّعف، وهذا لم ينعكس منه شيءٌ على القرآن الكريم.

وأمّا تناسبه مع القول بالتّحدّي والإعجاز؛ فلأنهما يقتضيان أن يكون كلُّ حرفٍ فيه موضوعاً في موضعه اللائق به المقتضي له؛ بحيث لا يسدّ غيره مسدّه.

والقول بالتّفاضُل يعني أنّ الكلام الأقلّ فصاحة، إمّا أن يكون به كلمةٌ غير فصيحة- إن كان التّفاضُل في أصل

([1]) تفسير المراغي ط دار إحياء التراث العربي بيروت ج ٥ ص ١٠٢.

الفصاحة- وإمّا أن يكون به كلمةٌ لا تُؤدي دورها- إن كان التّفاضُل في درجات الفصاحة- والأفصح قد خلا من كُلّ ذلك ،كما يعني أنّ الكلام الأقلّ بلاغة، لم يستوف كُلّ الاعتبارات المناسبة، والأبلغ قد استوفى ذلك.

وهذا يُوهم بأنّ القرآن به نَفَسٌ من أنفاس البشرية، وصبغةٌ من صبغتهم، كما يُوهم بأنّ المتكلم – تعالى الله وتنزه عن كلّ نقص- عاجز.

فأيّهما أنسب للقرآن؟!!

كما أنّ القول بالاستواء يتناسب مع واقع القرآن الكريم، وأدعو القارئ الكريم-إنْ أراد أن يتأكّد من صدق ذلك- إلى أن ينظر في القرآن ويتأمّله، وسوف يجد كلّ حرفٍ فيه؛ موضوعاً في مكانه المشاكل له، على أفصح ما يكون، بحيث لا يعثر على شيءٍ منه، يستطيع أن يقترح له بديلاً، يُؤدي دوره.

و ينبغي ألا ننسى أنّ هذا الكتاب نزل على أمةٍ حضارتها في لسانها، و قد تحدّاهم الحق-جلّ وعلا- بأنْ يأتوا بمثله، ،وتدرّج في التّحدي، إلى أنْ طلب منهم، أنْ يأتوا بسورةٍ من مثله، وظل يُقرِّعهم ويُؤنِّبهم على التَّلَكُّؤ، إلى أن سلّموا بإعجازه وعجزهم، ومن المسلّم به أنّه لو كان هؤلاء القوم الذين تحدّاهم القرآن وجدوا فيه- وهم أقدر النّاس على

ذلك- كلمةً واحدةً غيرَ فصيحةٍ، لوقفوا عندها، ولحاولوا أن ينالوا من القرآن الكريم وبلاغته؛ ليُدافعوا عن أنفسهم.

لكنّ ذلك لم يحدث، بل حدث عكسه؛ إذ قال قائلهم- الوليد بن المغيرة-:إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أسفله لمغدقٌ و إنّ أعلاه لمثمرٌ، وإنّه ليعلو وما يُعلى عليه، وإنّه ليَحْطُم ما تحته، وما يقول هذا بشرٌ!!" [1] ، وإذا لم يحدث هذا من أقدر النّاس عليه، ألا يكون ذلك دليلاً على عدم وجوده؟!!.

إذاً فالقرآن مستوٍ في أصل فصاحته؛ بمعنى أنّه ليس به كلمةٌ واحدةٌ غيرُ فصيحةٍ، ومستوٍ في درجات الفصاحة؛ بمعنى أنّه ليس به كلمةٌ أفصحُ من كلمةٍ، كذلك مستوٍ في بلاغته، بمعنى أنّه ليس هناك آيةٌ أبلغُ من آيةٍ، ولا سورةٌ أبلغُ من سورةٍ؛ فالكلّ في موطنه في أعلى طبقة من البلاغة ، ولا يَسُدُّ غيرُه مَسَدَّه.

وهذا القول هو ما أرتضيه وأومن به، وهو رأي الجمهور من أهل العلم؛إذ لم يشذّ عنه إلا قلةٌ قليلةٌ، حسبك من قلتهم أنّهم يُعدُّون.

---

(1) شعب الإيمان للبيهقي ج ١ ص ١٥٨.

و بعد هذا الجواب الذي اطمأنّت إليه النّفْسُ، وركن إليه اليقين، أنبِّه إلى بعض الأمور التي يجب التّنبيه عليها؛ حتى يتأكّد هذا الجواب:

التّنبيه الأوّل: إنّنا حينما نراجع كتب التفسير، نجد أنّ المفسرين كثيراً ما يذكرون عبارة "هذه الآية أبلغ من آية كذا" وقد تجلّى لنا ذلك عند حديثنا عن الزمخشري؛ إذ نقلنا بعض عباراته التي وردت فيها كلمة"أبلغ".

فهل يقصدون بذلك الإقرار بالتّفاضُل ، والاعتراف بأنّ بعض الآيات أبلغ من بعض، ويكون قولهم هذا مستنداً للقائلين بالتّفاوت ؟

الحق أنّ هذه العبارة- فعلاً- تردَّدت كثيراً في كتب التفسير، لكنّ المفسرين لا يقصدون منها القول بالتّفاضُل؛ لأنّنا قد عرفنا رأيهم، في القول بتفاضُل البيان القرآني، وأنّهم قد رفضوه رفضاً قاطعاً، ولم يقل به إلا قلةٌ قليلةٌ لا يبلغ عددها أصابع اليد الواحدة.

إنّما يريدون منها المبالغة، وعليه فكلمة "أبلغ" عندهم مأخوذةٌ من المبالغة، وليس من البلاغة ؛ لأنّ معناها إذا كانت مأخوذة من البلاغة، أنّ إحدى الآيتين كانت مطابقتها للمقتضيات أتمّ وأكمل من الأخرى، وهذا يلزمه مفهوماً أنّ

المفضل عليه، قد اعتراه نقصٌ في اشتماله على ما اقتضاه الحال، من خصوصيات التّركيب والتّصوير والتّحبير، وهل يقوم في قلب أحدٍ من أهل العلم، أنّ ذلك يمكن أنْ يُظنّ أنّ في القرآن الكريم أثارةٌ منه ؟

إنهم يعنون بقولهم هذه الآية "أبلغ" من تلك، أنّ فيها من روافد المبالغة ما ليس في الأخرى، و"التّفاوت في المبالغة يعني أنّ أحدهما كانت مقتضياتُ الإبلاغ في التّصوير أكثر من مقتضياتها في الآخر، فالتّفاوت في مقتضيات الإبلاغ في التّصوير، فثَمَّ مقامٌ يقتضي مزيداً من الإغراء بالشّيء أو مزيداً من التّرهيب بآخر، بينا لا يقتضي مقامٌ آخر شيئاً من ذلك فيكون الاعتناء بالمبالغة في الأوّل من البلاغة ، وترك الاعتناء بتلك المبالغة في الآخر من البلاغة أيضاً ، وفي القدر نفسه".[1]

على أنّ المفسرين ليسوا بدعاً في استعمال كلمة "أبلغ"، فالبلاغيون كثيراً ما يستعملونها، ولا يقصدون منها البلاغة؛ فتراهم يقولون: المجاز أبلغ من الحقيقة، والكناية أبلغ من التّصريح، ويُطلقون على التّشبيه المؤكد المجمل اسم" التشبيه البليغ"، ولا يمكن أن يقصدوا من ذلك، أنّ كلّ مجازٍ

([1]) راجع :المدخل إلى علم بلاغة العربية للدكتور محمود توفيق ص ١٠٥.

أعلى مطابقةً لمقتضى الحال من الحقيقة، ولا أنّ كلّ كنايةٍ أعلى مطابقةً لمقتضى الحال من التّصريح، ولا أنّ كلّ تشبيهٍ مؤكدٍ مجملٍ، أعلى بلاغةً من التّشبيه المرسل المفصل؛ لأنّ هذا لا يقول به عاقلٌ ألبتة.

إنّما يقصدون أنّ هذه الألوان، التي ذكروا عنها أنّها أبلغ، فيها من المبالغة ما ليس في الألوان الأخرى، وقد صرّح العصام الإسفرائيني (ت ٩٥١هـ) بأنّ المراد بأبلغ أي مبالغ فيه ، فالمعنى أنّ المجاز والكناية ممّا بُولغ فيهما مبالغة أكثر؛ حيث بُولغ في تقرير معنييهما وتحقيقهما...

وإنّما لم يجعلوا الأبلغ من البلاغة، فيكون المعنى أنّ كلاماً فيه كنايةٌ ومجازٌ، أبلغ من كلام فيه الحقيقة الصِّرفة، ويكون وجه الأبلغية كونه أكثر مبالغة؛ لأنّ كثرة المبالغة لا توجب البلاغة مطلقاً في مقام يستدعي المبالغة. فربَّ حقيقةٍ أبلغ من المجاز؛ لوقوعها في مقامٍ لا يسعُ المبالغة"[1]

ويُؤكّد لنا هذا الكلام النّظري مثالٌ واحدٌ ممّا ذكره المفسرون في هذا الإطار، يقول الزمخشري في تفسير قوله

([1]) الأطول للعصام تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي ط دار الكتب العلمية.بيروت.لبنان.ط أولى١٤٢٢هـ=٢٠٠١م ج٢ ص ٣٦٠.

تعالى:" وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ"[1] يعني أنّ تدميرهم كان عدلاً وقسطاً؛ لأنّهم استوجبوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله تعالى "وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ"[2] حيث جعل المنفى إرادة الظُّلم؛ لأنّ من كان عن إرادة الظُّلم بعيداً، كان عن الظُّلم أبعد، وحيث نُكِّر الظُّلمُ كأنّه نفى أنْ يُريد ظلماً ما لعباده "[3]

فالزمخشري –رحمه الله– يقول بأنّ آية "غافر" أبلغ من آية "فصّلت" فماذا يعني بقوله أبلغ ؟ أهو من البلاغة أم من المبالغة؟

الذي يتدبّر كلام الزمخشري، يتجلّى له أنّه يقصد بقوله "أبلغ"، المبالغة وليس البلاغة؛ لأنّ كلا القولين يقع في موقعه، ويتناسب مع سياقه ومقامه، وقد بلغ كلٌّ منهما الأفق الأسمى للبلاغة، ولو أنّنا تدبّرنا سياق كلٍّ منهما، لوجدنا أنّ سياق آية "غافر" يقتضي المبالغة، وسياق آية"فُصّلت" لا يقتضي ذلك؛ لأنّ آية "غافر" جاءت في حوار مؤمن آل فرعون لقومه، وهو ينصحهم مُهدِّداً لهم، ومُخوِّفاً بما حلّ بالذين تحزّبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية، ثم بيّن لهم أنّ ما حلّ بهم، لم يكن

([1]) غافر/٣١.

([2]) فصلت/٤٦.

([3]) الكشاف ج ٤ ص ١٦٩.

ظلماً، بل كان عدلاً وقسطاً؛ لأنّ الله أرسل إليهم رسلهم بالبينات؛ فكذّبوهم وتحزّبوا عليهم؛ فاقتضى ذلك إهلاكهم.

وتأمّل نفيه الظُّلم عن الله؛ فقد استخدم عدة وسائل للمبالغة؛ حيث جعل المنفي إرادة الظُّلم، وهذا أبلغ من نفي الظُّلم؛ لأنّ من كان عن إرادة الظُّلم بعيداً كان عن الظُّلم نفسه أبعد، كما نكّر"ظلماً" والتنكير يُوحي بنفي أيّ ظلمٍ للعباد.

والمقام والسِّياق يقتضيان هذه المبالغة؛ لأنّ الرّجل المؤمن بعدما خوّفهم؛ بأن يحلّ بهم كما حلّ بالسّابقين، يريد أن يُؤكّد لهم أنّ ما حلّ بالأمم الماضية، كان عن عَدْلٍ وليس عن ظُلْم، ومن ثَمَّ بالغ في نفي الظُّلم .

أمّا سياق آية "فصلت" فهو لا يقتضي المبالغة؛ لأنّ الحق – جل وعلا– يُبيّن أنّ من عمل صالحاً فلنفسه، ومن عمل سيئاً فلنفسه، والله لا يظلم أحداً من الفريقين، فالأمر لا يخصّ فريقاً بعينه، إنّما يعمّ الفريقين؛ ولذا فليس السِّياق في حاجةٍ إلى مبالغةٍ.

وبهذا الكلام نُدرك أنّ الزمخشري لا يروم من قوله:"أبلغ" التّفاضُل في البلاغة، إنّما يقصد المبالغة، وهذا ما

صرّح به أبو حيان في البحر مباشرة[1]

وقِسْ على هذا الموطن، كثيراً من المواطن، التي قال فيها المفسرون عبارة "هذه الآية أبلغ من تلك"، ولم يقصدوا بقولهم "أبلغ" التّفاضُل، وإنّما يقصدون المبالغة، ولولا الإطالة لذكرت كثيراً من ذلك، وقد ذكر شيخنا الدكتور محمود توفيق كثيراً من الآيات، التي ذكر فيها الإمام البقاعيّ أنّ "هذه الآية أبلغ من كذا"، وبيّن أنّها كلّها تعود إلى المبالغة وليس إلى البلاغة. [2]

وبناءً على ذلك فليس قول المفسرين "هذه الآية أبلغ من كذا" مستنداً للقول بتفاضُل البلاغة القرآنية.

الثّاني: هل يتفاوت نظم القرآن، وهل تتفاوت بلاغته بناء على ذلك؟

إنّنا نُسلّم بأنّ القرآن الكريم يتفاوت نظمه على صورٍ ودرجات، فهناك نظم يحتفل كثيراً بالتفنّن في أدوات التّصوير وفي أساليب الصياغة، وهناك نظمٌ لا يحتفل بذلك كثيراً، وقد أدرك ذلك علماؤنا الأجلاء وأشاروا إليه.

([1]) البحر المحيط ج ٧ ص ٤٤٤.

([2])المدخل إلى علم بلاغة العربية للدكتور محمود توفيق ص ١٠٥ وما بعدها.

لكنّنا وإنْ كنّا نُسلّم بذلك معهم ، فنحن نخالف أشد الخلاف؛ فيما رتّبه بعضهم عليه، من تفاوت بلاغة القرآن، بناء على تفاوت نظمه، نحن نرى أنّ جمال القرآن وروعته وسحره وبلاغته وإعجازه على حدٍّ واحدٍ ، ودرجةٍ واحدةٍ، لا تختلف ولا تتفاوت تبعاً لاختلاف نظمه؛ لأنّ إعجازه وبلاغته ليس قائماً على النّظم وحده؛ حتى تتفاوت بتفاوته، وتجيء درجاتها وفق درجاته، إنّما هو عنصر مهم من عناصر الجمال، وبجانبه عناصر أخرى من عناصر الجمال كاللفظ والمعنى والتصوير وغيرها.

أضف إلى ذلك أنّ البلاغة ليست في أن تأتي بخصائص واعتبارات، لا يقتضيها المقام، ولا يرشحها السياق، ولا يناسبها المعنى والغرض الذي من أجله بُني الكلام.

إنّما البلاغة أن يُلبّي المتكلم متطلبات مقامه، وإشارات سياق كلامه، وطبيعة معناه، وما يناسب غرضه.

ومن هنا "فإن الآيات التي جاءت في معرض التعاطف والتناسُق، لا تقلّ جمالاً في معناها وموقعها، وفي الغرض الذي سِيقت له ، عن تلك التي جاءت دقيقة النّظم ،عجيبة التفنُّن والصوغ.

لنقرأ قول الله تعالى في سورة النبأ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً۞ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً۞وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً۞ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً۞

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً۞ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً۞ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً۞ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾[1]

الآيات كما ترى جمل متعاطفة، ومعان متجاورة، ليس فيها من فنون النّظم ما يستوقف النّظر، ولكن هل يستطيع متذوقٌ أن يقول: إنّها أقل روعةً وجمالاً من قوله تعالى في سورة "الليل": ﴿أَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى۞ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[2]؛ لأنّها خلت ممّا اشتملت عليه الثّانية، من دقة التّعادل بين الشّرطين ،ورعاية التّقابل بين أجزاء الصّورتين؟ إنّ أحداً لا يستطيع أن يزعم هذا الزّعم، إلا إذا كان يقيس الجمال بجهاز آليّ، يتحسّس صور التّراكيب، وكمية التصرّف في أجزائها، فأمّا إذا كان معنا ومع النّاس في أنّ المقياس هو الذّوق والأريحية، وما غشى الكلام من الرّونق والطلاوة فلا.

ليس في القرآن ما يعلو بعضُه بعضاً في الجمال والبلاغة، ولكن فيه ما يفترق بعضُه عن بعضٍ، في صورة النّظم حسب طبيعة المعنى والغرض، وكلّ في الدّرجة التي

([1]) سورة النبأ/ ٦- ١٦.

([2]) الليل/ ٥-١٠.

ليس وراءها مطمع، في حسن العرض، وجمال النّسق، وروعة الأداء، وكمال التّأثير، ولهذا قال عنه الأوّل :" إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة ، فلم يقل: إنّه عجيب الصّنع دقيق النسج".[1]

التّالث: هؤلاء العلماء الذين قالوا بتفاضل البيان القرآني في فصاحته وبلاغته، لم يكن قصدهم سيئاً، ولا نيتهم خبيثة؛ ولذا فلا يجوز لباحثٍ أن يشك في نياتهم ولا أن يمسّ عقيدتهم؛ لأنّهم – كما قال شيخنا الدكتور علي العماري– من أصحاب النيّات السّليمة، والإيمان الصّحيح، جازتْ عليهم هذه الخُدْعة؛ فرَوَوْها دون أنْ ينتبهوا إلى ما تحمل في طياتها من مغزى غير لائق بجلال القرآن الكريم جملة وتفصيلاً" . [2]

([1]) راجع نظرية العلاقات ص ٤١-٤٢.

([2])حول إعجاز القرآن للدكتور علي العماري هدية مجلة الأزهر عدد شوال ١٤١٩هـ ص ٢٤.

خاتمة البحث

وبعد هذه الرّحلة الطويلة التي عشنا فيها مع القول بتفاضُل البيان القرآني في تراث أهل العلم أخذاً ورداً.

نصل إلى نهاية المطاف وخاتمة البحث؛ لنرصد –بإيجاز– أهم النتائج التي أسفر عنها هذا البحث:

١– المراد من وصف بيان القرآن بالتّفاوُت عند بعض أهل العلم، هو تفاضل الآيات والسُّور فيما بينها من الناحية البيانية، وليس المراد العيب أو التّناقض أو التّباعد.

٢– ذكر العلماء لتفاضل الآيات والسّور عدّة وجوه، كلُّها جائز إلا القول بالتّفاضل في الفصاحة والبلاغة؛ فقد حدث فيه خلافٌ، وهو قضية البحث.

٣– أول من أثر عنهما رفض القول بتفاضُل البيان القرآني، هو أبو جعفر محمد بن جرير الطّبري (ت٣١٠هـ) ، و أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ).

٤– تُوجدُ عدّة أسبابٍ قد ساعدت على نشأة القول بتفاضُل البيان القرآني– وإن لم تكن في الأصل مستنداً له– هي:

- الاعتزال.
- القول بتفاوُتِ ضروب النّظم.
- حديث البلاغيين عن طبقات البلاغة.
- القول بالصَّرفة في إعجاز القرآن كما كان عند ابن سنان وابن حزم.

٥- أول من قال بالتّفاضُل من البلاغيين القدماء، هو ابن سنان الخفاجي، كما أنّه أوّلُ من حاول أن يحتجّ له. وهو يذهب إلى أنّ البيان القرآني متفاضِلٌ في فصاحته وبلاغته، وتفاضُل الفصاحة عنده يعمُّ التّفاضُل في أصلها و في درجاتها.

٦- يرى ابن أبي الإصبع المصري أنّ البيان القرآني متفاضِلٌ في بلاغته، وقد استدلّ على ذلك بدليلين:أحدهما:أنّ القرآن جمع طبقات البلاغة الثّلاث؛ ليُظهر فضل كلّ طبقةٍ في بابها.والثّاني: أنّ الكلام إذا كان منوّعاً، افتنّت الأسماعُ فيه، ولم يَلحق النُّفوسَ مللٌ من ألفاظه ومعانيه.وقد حاول ابن أبي الإصبع، أن يُفاضل بين آيتين؛ ليُبيّن تفوّق إحداهما على الأخرى في البلاغة.

٧- القول بتفاضُل البيان القرآني في فصاحته وبلاغته، يكاد يلقى القبول عند الكثير من البلاغيين المتأخرين،

وقد ألقى أغلبهم هذا القول دون توضيح له، أو تدليلٍ عليه و استشهادٍ.

٨- لم يقل بتفاضُل البيان القرآني من المفسرين إلا قلة قليلة، نُسِبَ إليها هذا القول، أو نقل عنها مثل أبي نصر القُشَيْري والبارزي.أما الزمخشري، فقد كان مضطرباً؛ فمرةً يقول بالتّفاضُل، ومرةً يقول بالاستواء، والسّر في ذلك أنّ أمرين كانا يتنازعانه، أحدهما : اعتزاله، والآخر بلاغته ودقته في فهم بلاغة القرآن، فأمّا اعتزاله فقد كان وراء قوله بالتّفاضل، وأما بلاغته ودقته فقد كانت وراء قوله بعدم التّفاضل.

٩- قال بالتّفاضُل من علماء الفقه والأُصول، الإمام ابن حزم الأندلسي الظّاهري، والعزّ بن عبد السّلام، والقاضي صدر الدين موهوب الجزري.

١٠- القول بالصَّرفة في إعجاز القرآن ، كان وراء القول بالتّفاضُل، عند ابن سنان وابن حزم.

١١- يرى ابن حزم أنّ الآيات التي تُبنَى على السّرد، وكذا التي تَحكي محاورات الأمم السابقة، أدنى في المستوى البلاغي من غيرها.

١٢- يرى صدر الدين موهوب الجزري أنّ القرآن متفاضِلٌ في بيانه؛ لأنّه جاء على نمط كلام العرب.

١٣- تحدّث ابن تيمية عن وجوه التّفاضل في القرآن، و لم يتعرض للتّفاضُلِ البياني صراحة إلا أنّ حديثه يُوحي بالقول بالتّفاضُلِ البياني، وقد مِلْتُ إلى ذلك.

١٤- القائلون بتفاضُلِ البيان القرآني في فصاحته وبلاغته، على مختلف كلّ الطّوائف قلةٌ قليلةٌ، والجمهور يقول بالاستواء.

١٥- قلّة القائلين بهذه المقالة من المفسرين، ولعل السّبب في ذلك تعامل المفسرين مع النّص القرآني مباشرة.

١٦- لم يقل بتفاضُلِ البيان القرآني أحدٌ من علماء الإعجاز- وهذا مؤشّرٌ جيّدٌ- ولعل ذلك لأنّ القول بالتّفاضُلِ يصطدم مع القول بالإعجاز.

١٧- الخطابي يُؤكّد القول باستواء البيان القرآني، ويردّ على الطّاعنين بوجود كلام غير فصيح بالقرآن.

١٨- الباقلاني بنى كتابه على فكرة مباينة البيان القرآني للبيان البشري، وأكّد القول باستواء الأوّل وتفاوت الثّاني.

١٩- أكّد الرّافعي والشّيخ دراز وبنت الشاطئ، القول باستواء البيان القرآني، ووصف الشّيخ دراز القرآن في جملته بالإعجاز والاستواء.وقد أفاد جميعهم من الخطابي والباقلاني.

٢٠- يرى ابن عطية باستواء البيان القرآني، ويرى أنّ بلاغته قد تظهر لنا في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا في سلامة الذّوق، وجودة القريحة، ومَيْز الكلام.

٢١- يذهب سيد قطب إلى أنّ القرآن مستوٍ في كلّ شيءٍ، وقد جعل استواءه ظاهرةً من ظواهره اللافتة للنظر، وسمّاها "ظاهرة التّناسق أو ظاهرة عدم الاختلاف"

٢٢- أكّد الشّيخ الشّعراوي القول باستواء البيان القرآني.

٢٣- اعتبر حازمُ القرْطاجَنّي، والأميرُ يحيى بن حمزة العلوي استواء البيان القرآني، وجهاً من وجوه الإعجاز.

٢٤- الدكتور محمد نايل يقبل القول بتفاوُتِ ضروب النّظم في القرآن، ويرفض تفاضل البلاغة والفصاحة

٢٥- يذهب الدكتور على العماري إلى استواء البيان القرآني، ويرى أنّ القول بالتفاضُل خُدْعةٌ جازت على بعض المؤلفين، من أصحاب النيات السّليمة والإيمان الصّحيح؛ فرووها دون أن ينتبهوا إلى ما تحمل في طياتها من مغزى غير لائق بجلال القرآن الكريم جملة وتفصيلاً.

٢٦ – الإمام الغزالي يرفض القول بالتفاضُل في الفصاحة والبلاغة، و يعتبر استواء البيان القرآني دليلاً على الألوهية، ولكنه يُوافق على القول بتفاضل القرآن؛ باعتبار المعنى المتحدّث عنه أو فيه.

٢٧– الرأي الذي أقتنع به هو القول باستواء البيان القرآني في فصاحته وبلاغته، وهذا القول هو الذي يتناسب مع جلال القرآن، والقول بالإعجاز، كما أنّه هو الذي يتناسب مع واقع القرآن، ويُعتبر دليلاً على أنّ القرآن الكريم من عند الله.

أما القول بالتّفاوت والتفاضل فهو عيبٌ ونقصٌ؛ يُوحي بعجز المتكلم – تعالى الله عن ذلك– وهو دليلٌ على البشرية، تنزّه كتابُ الله عنه.

٢٨– أوافق على القول بتفاوُتِ ضروب النّظم في القرآن، ولا أعتبر ذلك مستنداً لتفاضل البلاغة.

٢٩– قول المفسرين "هذه الآية أبلغ من تلك" ليس مستنداً للقول بالتّفاضل؛ لأنّ أبلغ من المبالغة وليس من البلاغة.

٣٠– لم يكن مقصد العلماء الذين قالوا بالتّفاضُلِ من المسلمين سيئاً؛ ولذلك لا يجوز لباحثٍ أن يمسّ عقيدتهم بسوء، ولا أن يتهمهم بخبث.

ثبت المصادر والمراجع

- أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيـــان أحـــوال العلـــوم لصديق بن حسن القنوجي تحقيق عبد الجبار زكار.دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨م.
- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. ط. مكتبة نزار مصطفى الباز بمكة المكرمة. ط. أولى ١٤١٧هـــ= ١٩٩٦م.
- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام (٦٦٠هـــ) ط دار الحديث بالقاهرة.
- الأطول للعصام تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي ط دار الكتب العلمية. بيروت .لبنان.ط أولى١٤٢٢هـــ=٢٠٠١م
- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم للدكتور محمد محمد أبو موسى .مكتبة وهبة بالقاهرة. ط ثانية ١٤١٨هـــ= ١٩٩٧م.
- الإعجاز البياني للقرآن للدكتورة عائشة عبد الرحمن . ط دار المعارف ط ثانية.١٤٠٤هـــ =١٩٨٤ م.
- إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق السيد أحمد صقر .ط. دار المعارف .بمصر. ط. خامسة.

❖ إعجاز القرآن(في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها) للأستاذ عبد الكريم الخطيب دار الفكر العربي ط أولى ١٣٨٣هـ= ١٩٦٤م.

❖ إعجاز القرآن الكريم بالصَّرفة(دراسة ناقدة) للدكتور محمود توفيق سعد. على شبكة المعلومات.

❖ إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية لمصطفى صادق الرّافعي مراجعة درويش الجويدي. ط المكتبة العصرية .صيدا بيروت١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م.

❖ الإعجاز النّحوي في القرآن الكريم للدكتور فتحي عبد الفتاح الدجني.مكتبة الفلاح الكويت. ط أولى ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م.

❖ الإيضاح للخطيب القزويني (مطبوع مع البغية للشّيخ عبد المتعال الصعيدي) .ط.مكتبة الآداب .الطبعة السّابعة عشر ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.

❖ البداية والنّهاية لابن كثير(ت ٧٧٤هـ). مكتبة المعارف. بيروت.بدون تاريخ.

❖ بديع القرآن المجيد لابن أبي الإصبع تقديم وتحقيق الدكتور حفني محمد شرف. ط دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع بالقاهرة ١٩٥٧م.

❖ البرهان في علوم القرآن للزّركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط دار المعرفة .بيروت. ط. ثانية.

❖ بغية الإيضاح للشّيخ عبد المتعال الصّعيدي .ط .مكتبة الآداب. ط. السّابعة عشرة ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.

❖ البلاغة تطور وتاريخ للدّكتور شوقي ضيف .ط. دار المعارف بمصر . ط .سادسة.

❖ البلاغة العالية (علم المعاني) للشّيخ عبد المتعال الصعيدي تحقيق الدكتور عبد القادر حسين. ط. مكتبة الآداب. ط .ثانية ١٤١١هـ= ١٩٩١م.

❖ البلاغة القرآنية في النّبأ العظيم للدكتور سعيد الهلالي .ط "المتّحدون للطباعة بالزقازيق" ط أولى.١٤٣٠ هـ=٢٠٠٩م.

❖ بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلّام. ط دار المعارف.ط ثالثة.

❖ البيان في إعجاز القرآن للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي. ط. دار عمار للنشر والتوزيع.ط ثالثة ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

❖ تاج العروس للزبيدي. ط دار الهداية.

❖ تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها للمراغي ط مصطفى البابي الحلبي بمصر ط أولى ١٣٦٩هـ=١٩٥٠م.

❖ تجريد العلّامة البناني على مختصر السّعد. ط.محمد علي صبيح بمصر. ط. أولى. ١٣٤٧هـ.

❖ تحرير التّحبير لابن أبي الإصبع تحقيق الدكتور حفني شرف. ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية "لجنة إحياء التراث" القاهرة ١٣٨٣هـ=١٩٦٣م.

❖ تفسير البحر المحيط لأبي حيان، تحقيق الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون. ط. دار الكتب العلمية. بيروت. ط أولى ١٤٢٢هـ= ٢٠٠١م.

❖ تفسير البيضاوي المسمى بـ "أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل" ط دار الفكر. بيروت.

❖ تفسير التّحرير والتّنوير لسماحة الأستاذ الإمام الشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور. ط .الدّار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

❖ تفسير الثّعلبي أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم(٤٢٧هـ) المسمى بـ" الكشف والبيان في تفسير القرآن" تحقيق سيد كردي حسن ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط أولى ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.

❖ تفسير الشعراوي.ط دار أخبار اليوم.

❖ تفسير الطّبري. ط. دار الكتب العلمية بيروت .ط .رابعة ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.

❖ تفسير القرآن – اختصار النُّكت للماوردي– تأليف: الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السُّلمي الدّمشقي الشّافعي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي. ط. دار ابن حزم – بيروت – ط .أولى ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م.

❖ التَّفسير الكبير للفخر الرّازي (ت٦٠٦هـ) ط دار الكتب العلمية بيروت. ط أولى ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.

❖ تفسير المراغي للمرحوم أحمد مصطفى المراغي ط دار إحياء التراث العربي. بيروت.لبنان.

❖ تقرير الشّمس للإنبابي على شرح سعد الدين التّفتازاني لتلخيص المفتاح وحاشيته الشّهيرة بالتّجريد في علم المعاني والبيان والبديع.ط . مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٠هـ.

❖ تهذيب اللغة للأزهري تحقيق محمد عوض مرعب. ط. دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان . ط. أولى.٢٠٠١م.

❖ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (للرّماني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد خلف الله أحمد والدّكتور محمد زغلول سلام .ط .دار المعارف بمصر. ط. ثالثة.

❖ جواهر القرآن لأبي حامد الغزالي تحقيق محمد رشيد رضا القباني. دار إحياء العلوم. لبنان .ط. أولى ١٤٠٤هـ= ١٩٨٥م.

❖ حاشية عبد الحكيم على المطول. ط. الشّركة الصحافية العثمانية في استانبول–دار سعادات–.

❖ حاشية الدّسوقي – ضمن شروح التلخيص – ط دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

❖ حصاد قلم للدكتور محمد عبد الله دراز جمع وتحقيق الشيخ أحمد مصطفى فضلية. ط دار القلم. ط. أولى ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م.

❖ حول إعجاز القرآن للدكتور علي العماري هدية مجلة الأزهر عدد شوال ١٤١٩هـ.

❖ دراسة في البلاغة والشّعر للدكتور محمد أبي موسى .مكتبة وهبة .ط أولى ١٤١١هـ= ١٩٩١م.

❖ الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة لأبي الفضل العسقلاني تحقيق محمد عبد المعيد خان. ط. مجلس دائرة المعارف العثمانية. حيدر أباد. الهند. ط. ثانية. ١٣٩٢هـ= ١٩٧٢م.

❖ دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر .ط .الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م).

❖ الرّسالة الشّافية في وجوه إعجاز القرآن لعبد القاهر الجرجاني(مع الدلائل) تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر مكتبة الأسرة.

❖ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي تحقيق داود غطاشة الشّوابكة .ط .دار الفكرناشرون وموزعون .عمان .الأردن. ط أولى ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م.

❖ سر ّالفصاحة لابن سنان الخفاجي دراسة وتحليل للدكتور عبد الرازق أبو زيد زايد. مكتبة الشباب بالإسكندرية بمصر ١٩٨٢م

❖ سير أعلام النُّبلاء لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قازيمار الذّهبي (٦٧٣- ٧٤٨هـ) تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي. ط. مؤسسة الرّسالة. بيروت. لبنان. ط. التّاسعة.

❖ شروح التّلخيص للتفتازاني واليعقوبي والسُّبكي والدُّسوقي.ط.دار الكتب العلمية.بيروت. لبنان.

❖ شعب الإيمان للبيهقي تحقيق محمد السّعيد بسيوني زغلول . ط. دار الكتب العلمية .بيروت. ط .أولى ١٤١٠هـ.

❖ الشقائق النعمانيّة العقد المنظوم في علماء الدولة العثمانية لطاشكبري زادة ط دار الكتاب العربي بيروت ١٣٩٥هـ= ١٩٧٥م.

❖ صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .ط .دار إحياء التّراث العربي. بيروت. لبنان.

❖ الصّناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق علي محمد البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. ط. المكتبة العصرية بيروت. ط. ١٤٠٦= ١٩٨٦م.

❖ طبقات الحُفَّاظ لجلال الدين السُّيوطي . ط. دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤٠٣هـ.

❖ طبقات الشّافعيّة لأبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة تحقيق الحافظ عبد العليم خان.ط عالم الكتب. بيروت. ط أولى ١٤٠٧هـ.

❖ طبقات الشّافعيّة الكُبْرَى لتاج الدّين بن علي بن عبد الكافي السُّبكي تحقيق الدكتور محمود الطناحي والدكتور عبد

الفتاح الحُلْو .ط .هجر للطباعة والنشر والتوزيع. ط ثانية. ١٤١٣هـ.

❖ طبقات الفقهاء الشّافعيّة، تأليف: تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح تحقيق: محيي الدين علي نجيب. دار البشائر الإسلامية – بيروت ط .أولى– ١٩٩٢م.

❖ طبقات المفسرين للداودي تحقيق سليمان صالح الخزي. مكتبة العلوم والحكم السعودية. ط أولى ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.

❖ طبقات المفسرين للسُّيوطي تحقيق علي محمد عمر. مكتبة وهبة بالقاهرة. ط أولى ١٣٩٦هـ .

❖ الطِّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز لأمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني. ط دار الكتب العلمية .بيروت. لبنان.

❖ الفِصَل في الملل والأهواء والنّحل لابن حزم الأندلسي الظاهري تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصير والدكتور عبد الرحمن عميرة. ط. دار الجيل. بيروت . لبنان.

❖ العِبَر في خَبَر من غَبَر، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد. مطبعة حكومة الكويت .ط ثانية ١٩٨٤م.

❖ عروس الأفراح لبهاء الدين السُّبكي تحقيق د. عبد الحميد هنداوي.ط. المكتبة العصرية. بيروت. ط. أولى ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٣م .

❖ العزف على أنوار الذكر. معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السُّورة للدكتور محمود توفيق محمد سعد. ط أولى. ١٤٢٤هـ.

❖ العمدة في محاسن الشعر وآدابه للحسن بن رشيق القيرواني(٤٥٦هـ) تحقيق محمد قرْقزَان .دار المعرفة. بيروت. لبنان. ط أولى. ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م

❖ فوائد مشكل القرآن للعزّ بن عبد السلام تحقيق الدكتور سيد رضوان علي " الندوي" دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة.ط. أولى ١٣٨٧هـ= ١٩٦٧م.

❖ في ظلال القرآن لسيد قطب .دار الشروق.ط التاسعة.١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م.

❖ القاموس المحيط للفيروز آبادي، دار الجيل، بيروت لبنان.

❖ الكشاف لجار الله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) .دار المعرفة . بيروت. لبنان.

❖ كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون لمصطفى عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي(ت١٠٦٧هـ) دار الكتب العلمية بيروت١٤١٣هـ= ١٩٩٢م.

❖ لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف بمصر.

❖ لسان الميزان لأحمد بن علي بن حَجَر العسقلاني الشّافعي تحقيق دائرة المعرف النّظامية- الهند- ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.بيروت. ط ثالثة ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

❖ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النّجدي الحنبلي ط دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع بالرياض١٤١٢هـ= ١٩٩١م.

❖ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تحقيق عبد السّلام عبد الشّافي محمد .ط. دار الكتب العلمية .بيروت. لبنان.ط. أولى١٤١٣هـ= ١٩٩٣م.

❖ المحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة تحقيق عبد الحميد هنداوي .ط دار الكتب العلمية .بيروت .لبنان. ط .أولى ٢٠٠٠م.

❖ مختار الصِّحاح لأبي بكر الرّازي تحقيق محمود طاهر.مكتبة لبنان ناشرون ١٤١٥هـ= ١٩٩٥م.

❖ المدخل إلى علم بلاغة العربية للدكتور محمود توفيق سعد . شبكة المعلومات.

❖ المطول لسعد الدين التفتازاني. مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

❖ المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم للدكتور سعد الدين السيد صالح. ط دار المعارف. ط ثانية ١٩٩٣م

❖ معجم الأدباء لياقوت الحموي .ط. دار الكتب العلمية .بيروت .ط. أولى ١٤١١هـ= ١٩٩١م.

❖ المعجم المختص بالمحدّثين لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذّهبي، تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة . ط مكتبة الصّديق – الطائف – السعودية. ط أولى ١٤٠٨هـ.

❖ مفتاح العلوم للسّكاكي.ط.شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. ط ثانية. ١٤١١هـ=١٩٩٠م.

❖ المفردات في غريب القرآن للرّاغب الأصفهاني تحقيق محمد سيد كيلاني. ط .دار المعرفة. بيروت. لبنان .

❖ مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السَّلام محمد هارون .ط دار الجيل .بيروت. لبنان. ط ثانية ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.

❖ مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث للدكتور إبراهيم عبد الله الخولي .ط دار البصائر بالقاهرة .ط أولى ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.

❖ المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور لتقي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الصيرفيني (ت٦٤١هـ) تحقيق خالد حيدر. دار الفكر للطباعة والنشر التوزيع – بيروت – ١٤١٤هـ.

❖ منهاج البُلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجنى (ت ٦٨٤) تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ط دار الكتب الشّرقية ١٩٦٦م.

❖ منهج الزمخشري في تفسير القرآن للدكتور مصطفى الصّاوي الجويني. ط. دار المعارف. ط. ثالثة.

❖ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي (ت٣٧٠هـ) تحقيق السيد أحمد صقر. ط. دار المعارف بالقاهرة. ط. رابعة

❖ مواهب الفتّاح لابن يعقوب المغربي – ضمن شروح التلخيص– ط دار الكتب العلمية.بيروت.

❖ النّبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ط. دار القلم بالقاهرة والكويت. ١٩٥٧م

❖ نزهة الألباب في الألقاب لأحمد بن علي بن محمد المشهور بابن حجر العسقلاني تحقيق عبد العزيز محمد بن صالح السّديري. مكتبة الرُّشد – الرّياض – ط أولى ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

❖ نظرية العلاقات أو النّظم بين عبد القاهر والنقد الغربي الحديث للدكتور محمد نايل. ط .دار الطباعة المحمدية بالأزهر ١٩٦٤م .

❖ نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ) تحقيق عبد الرازق غالب المهدي .ط دار الكتب العلمية.بيروت.لبنان.ط ثالثة ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م.

❖ النُّكت في إعجاز القرآن للرّماني – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام . ط .دار المعارف ط ثالثة.

❖ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرّازي تحقيق الدكتور نصر الله حاجي مفتي أوغلى. ط .دار صادر . بيروت. لبنان. الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م.

❖ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي (ت ١٠٦٧هـ) دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م.

❖ الوافي بالوفيات لصلاح الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى . دار إحياء التُّراث – بيروت – ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.
❖ وجوه من الإعجاز القرآني لمصطفى الدَّباغ . مكتبة المنار .الزّرقاء. ط. ثانية ١٤٠٥–= ١٩٨٥م.
❖ الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي. ط مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.ط رابعة ١٣٨٦هـ= ١٩٦٦م.
❖ الوفيات لأبي المعالي محمد بن رافع السّلامي تحقيق صالح مهدي عبّاس ، د. بشّار عوّاد معروف. مؤسسة الرّسالة – بيروت – ط أولى ١٤٠٢هـ.